ملخص كتاب التخلف الاجتماعي للدكتور مصطفى حجازي

المقدمة

اهتم الدارسين بالجوانب الاقتصادية والصناعية والسكانية (صحة وتعليم وتغذية.. الخ) للتخلف، ولكنهم أهملوا دراسة الإنسان المتخلف بصفته عامل له ديناميته النفسية والعقلية، له علاقة جدلية بواقعه من خلال نشأته تبعا لبنية اجتماعية معينة من جهة ودوره في تعزيز هذه البنية (بنية التخلف) ودعم استقرارها من جهة أخرى. ويظهر الجانب الآخر من هذا الخلل في اهتمامات السياسيين الذين يُقرون عمليات التغيير الاجتماعي بخطط التطوير الاقتصادية والتنموية مهملين التكوين النفسي والذهني للإنسان المتخلف رغم كونه عنصر أساسي ومحوري في أي خطة تنموية.

يتلخص وجود الإنسان المتخلف في مأزق القهر، فهو إنسان مقهور يحاول في سلوكه وقيمه وتوجهاته التغلب على هذا المأزق. تنبث علاقات القهر والتسلط من ناحية ورد الفعل عليها من رضوخ أو تمرد من ناحية ثانية في كل ثنايا الإنسان المتخلف النفسية والذهنية والسلوكية فينتج عنها قلق وجودي وإحساس بالعجز أمام المصير وانعدام الشعور بالأمان، يحاول الإنسان المتخلف مجابهتها بأساليب دفاعية متعددة متعارضة جدليا أو متكاملة في تعارضها تبعا لتغير لظروفه واعتقاداته وانتماءاته.

يتناول هذا الكتاب ١-التكوين النفسي والذهني للإنسان المتخلف، من خلال رسم الملامح الأساسية للإنسان المقهور ٢- الأساليب المتنوعة التي يجابه بها مأزقه الوجودي من خلال استعراض الأساليب الدفاعية التي يلجأ إليها في سبيل ذلك.
يدور الكتاب حول الإنسان المتخلف بشكل عام لكنه مُستقى بشكل مباشر من الواقع اللبناني والعربي في خصوصية لا تمنع التعميم، كما أنه منهجيا مبني على الملاحظة والتحليل النفسي والاجتماعي بطريقة عياديه بدون استناد إلى ابحاث ميدانية او تجريبية وهو ما لا يمنع من قبول النتائج التي يصل إليها رغم درجة الشك التي تشوبها.

القسم الأول: الملامح النفسية للوجود المتخلف

تمهيد

يهتم هذا القسم برسم صورة نفسانية حية متكاملة وشاملة للوجود المتخلف من خلال بعديه الذاتي والموضوعي محاولا تفادي الاختزالية والسكونية والجمود، سيرسم القسم صورة تعبر عن الواقع بديناميته، فليس هناك مجتمع ساكن حتى ولو أغرق في التقليد. قد تكون الحركية بطيئة او خفيفة في مظاهرها، ولكنها موجودة حتما، هناك دائما انتفاضات ومحاولات تغيير، ولكنها تطمس بسرعة نظرا لشدة قوى القمع.

يقصد البحث بتحليلاته الجماهير العفوية غير المنظمة سياسيا حيث تبدوا خصائص التخلف النفسية بأبرز صورها في نمط حياة هؤلاء، رغم أنها تظهر كذلك في الفئات المنظمة، التي تعجز غالبا عن التخلص من قيود التخلف ذهنيا وانفعاليا، حيث يتميز هؤلاء بتداخل بين أعلى درجات التنظير الفكري وأشد أشكال التخلف في الممارسة في هوة بين الفكر وبين المعاش اليومي خارج إطار الممارسة العامة.

يركز البحث حول الفئة السكانية الأكثر غبنا في سلم السيطرة والخضوع، ولكنه يميز أن الفئة التي تقترب من مواقع السيطرة على هذا السلم تتصف بالخصائص نفسها متسترة في قناع التقدم، يكفي انتزاعه حتى نتحقق من أن سلوكها تحكمه القوي والمعايير نفسها والنظرة للحياة التي تميز الإنسان المقهور، فبينما يتماهى الفلاح بسيده ويشعر بالدونية تجاهه، نرى السيد يتماهى بدوره بالمستعمر أو الرأسمالي الأوروبي ويشعر بالدونية نفسها تجاهه. يصف الباحثون ذلك باسم (أثر الاستعراض) ويقصد بهذا المصطلح محاكاة المظاهر الخارجية للتقدم في جانبها الاستهلاكي بدون الوصول حد البعد الانتاجي الابتكاري. فوراء العلم والتقدم الظاهري تظل النظرة الأساسية إلى الوجود ذات طابع متخلف.

الفصل الأول: تحديد وتعريف

ظهر علم اقتصاد التخلف بعد فشل عمليات التطوير الاقتصادية في النصف الثاني من قرن الحرب الكونية الثانية في النهوض بدول العالم الثالث بعد استقلالها، لم يكن يكفي لتحريك هذه البلدان الديناميات نفسها التي حركت العالم الصناعي (حرية التفاعل الاقتصادي والمبادرة الحرة وتأسيس الأعمال الصناعية والإنتاجية). البلدان النامية حاليا مختلفة نوعيا عن بقية العالم لا كميا فحسب. وبعد اقتصاد التخلف نشأ علم اجتماع التخلف حين ثبت فشل تطبيق نظريات علم الاجتماع التقليدي الموضوعة في بلدان العالم الحديث، ولا بد في رأينا من وضع سيكولوجية خاصة بالتخلف تكمل اقتصاده واجتماعه، وهو موضوع هذا البحث.

اولا: نظريات التخلف

١- الطريقة السطحية في دراسة التخلف

تعرف الطريقة السطحية الظاهرة بأغراضها. والنموذج عليها: الأبحاث التي نشرتها الأمم المتحدة، فمن مميزات التخلف مثلا: الفقر والحالة الصحية والتعليم واهمها على الاطلاق متوسط الدخل الفردي، وهنا قسمت البلاد إلى عدة فئات، فالبلاد من الفئة الاولى هي التي يقل دخل الفرد فيها عن ١٠٠ دولار، والثانية يتراوح بين ١٠٠ الى ٣٠٠ دولار والثالثة التي توصف بأنها على طريق النمو بين ٣٠٠ الى ١٠٠٠ دولار واخيرا البلدان الصناعية المتقدمة التي يتجاوز فيها الدخل الفردي ١٠٠٠ دولار وأكثر. إلا أن مؤشر الدخل القومي مقسوما على عدد السكان مضلل جدا فهو لا يبين التشتت الكبير في مستوى مختلف الفئات التي يتكون منها المجتمع، فالدخل لا يتوزع مطلقا بالتساوي، بعض الفئيات تعيش في حالة بذخ مادي مفرط بينما الغالبية العظمى تعيش دون مستوى الكفاف. كما أنه لا يأخذ بالحسبان الغني المفاجئ في الدول البترولية دون أن تعكس هذه الثورة تطور في البنى الاقتصادية والاجتماعية.

أما لاكوست فيلخص المحكات السطحية للتخلف في ثلاثة: الدخل القومي للفرد بالمتوسط, الوحدات الحرارية المستهلكة في التغذية, ومستوى التعليم أو انتشار الأمية. هذه المحكات لا تتوافق فيما بينها دائما فالدخل القومي قد يكون كبير، ولكن التغذية سيئة وقد تستهلك قلة معدل عالي من السعرات بينما تعاني الغالبية العظمى من نقص في الغذاء.

لا تشرح الطريقة السطحية الظاهرة كنتاج الخصائص البنيوية للعالم الثالث ولا الآليات التي أنتجت هذه البنى وهي بالتالي لا تساعد على حسن التشخيص. انها تنطلق من مقارنة البلدان المتخلفة بما كانت عليه البلدان الصناعية قبل قرن، او قرنين، أو أكثر، أو أقل من الزمن متجاهلة الفروق النوعية بينهما. يصف لوكوست التخلف بأنه ظاهرة حديثة: تفجر سكاني هائل لم يكن موجودا في البلدان الصناعية في أوائل الثورة الصناعية أوقع بلدان العالم الثالث في ورطة التخلف.

تعرف الطريقة السطحية التخلف إذا كظاهرة دونية، البلد المتخلف أقل في المستوى من بقية البلدان من حيث تأمين الحاجات الحيوية الضرورية للإنسان، لكن هذا التعريف لا يستقيم لعدم توحيد المعايير من ناحية وصعوبة المقارنة بين البلدان المتقدمة والنامية من ناحية اخرى، ولوجود بلدان غنية، ولكنها ما زالت متخلفة اجتماعيا من ناحية ثالثة.

٢- الطريقة الاقتصادية في دراسة التخلف

١.٢ التخلف الصناعي والتقني

يكاد التخلف يكون مرادفا لقلة التصنيع وبدائيته، في البلد المتخلف الاقتصاد ساكن وبالتالي مستوى منخفض من القوى الإنتاجية وبالتالي مستوى منخفض من وسائل العمل ومهارة الأيدي العمالة، وينتج عن هذين الأمرين انخفاض في الدافع إلى التوظيف المال بسبب قلة الربح. ولكن انخفاض مستوى القوى الإنتاجية مرتبط أساسا بالبنية الاجتماعية والنظام الاجتماعي السياسي السائد.
ويقدم اوسكار لانج تعريفا للاقتصاد المتخلف بأنه "اقتصاد لا يكفي مجموع رؤوس الأموال المتوفرة فيه لاستخدام اليد العاملة المتاحة" يهمل هذا التعريف رأس المال المتوفر في حالة الدول النامية الغنية والذي لا يوظف للإنتاج وإنما يصرف في غايات استهلاكية.

لم يعد تأمين رأس المال والتقنية كافيا لتصنيع بلد ما. التصنيع هو مجمل الخصائص الاقتصادية والاجتماعية التي هي اسباب ونتائج النمو الصناعي.
البلدان النامية لا تفتقر إلى الصناعة المتطورة ولا الزراعة المتطورة كليا، ولكن المتوفر منها معطل، في الزراعة الإنتاج هزيل في القطاع الوطني، والقطاع الخاص المتقدم ذو الإنتاجية العالية محدود في الحجم وحكر على المستعمرين ويتوجه إلى الخارج من حيث مصير الأرباح، كما أنه معزول اجتماعيا ولا تأثير له في تغيير بنية المجتمع وتطويرها، كذلك يتوجه المستوى الصناعي نحو إنتاج السلع الاستهلاكية لا لتأسيس صناعة وسائل إنتاج.

قصود التصنيع واستغلال الموارد والثروات إذا لا يترجم قصورا في الإمكانات فقط، بل تنوع وقوة الكوابح الاجتماعية التي تمنع النشاط والفعل كذلك. التخلف الصناعي ينتج عن بنية اجتماعية متيبسة تشل النمو عن طريق الاستهلاك الترفي في حين أن التنمية تعني تغيرات متلازمة في التقنيات وفي مجال العلاقات الاجتماعية، فالجمع بين العاملين الاجتماعي والتقني هو شرط لا غنى عنه للنجاح.

٢.٢ التخلف الاقتصادي البنيوي

إذا كان البلد المتخلف يتصف ببنية جامدة من وجهة نظر تقنية صناعية فهو على العكس يتصف ببنية دينامية من وجهة النظر الاقتصادية البنيوية، وتعتمد هذه الدينامية على ثلاث محكات: التفاوت الهائل في التوزيع القطاعي للانتاج، تفكك النظام الاقتصادي والتبعية للخارج ويضيف لاكوست إليها تضخم قطاع الخدمات على حساب قطاع الإنتاج وما يتضمنه ذلك من بروز النشاطات الطفيلية والاستغلال التجاري.

١.٢.٢ تفاوت التوزيع القطاعي للإنتاج

يوجد في البلاد النامية قطاعات إنتاجية متقدمة جدا، ولكنها جزر في محبط من التأخر، يسيطر عليها ويحظي بثروتها قلة من الوجهاء المحليين المتحالفين مع الرأسمالية الخارجية أو المستعمر بينما غالبية السكان يمارسون أعمال بدائية ذات مردود ضئيل وينشأ عن ذلك تفاوت هائل في مستوى المعيشة قد يصل الى واحد الى ١٠ او أكثر. يؤدي هذا التفاوت إلى بوار الأرض بفعل الهجرة من الريف وتدهور الحرف التقليدية مما ينتج عنه زيادة نسبة النشاطات الطفيلية والهامشية المهنية التي تقدم الربح السريع على حساب العمل الذي تدمر قيمته مما يفتح السبيل أمام ازدهار مختلف أشكال السلوك الجانح.

٢.٢.٢ تفكك الصلات في النظام الاقتصادي

تتكامل قطاعات النشاط الاقتصادية الثلاثة في البلدان النامية، قطاع الإنتاج، وقطاع صناعة الآلات والمواد الاستهلاكية ،قطاع التجارة والخدمات في تكامل وتدافع يؤدي إلى نمو ودفع القطاعات بعضها بعضا، أما في المجتمعات المتخلفة نجد تفككا في الدورة الانتاجية والاستهلاكية مما يجعل الاقتصاد اسير الاقتصاد الخارجي. حيث ينحسر قطاع الصناعة كي يقتصر على المواد الاستهلاكية التي لا تزيد الدخل القومي مما يسبب طغيان القطاع التجاري على الإنتاج الصناعي وهكذا تتجمع الثروة تدريجيا في أيدي طبقة التجار التجار بدل أن تنعكس رخاء عاما على جميع فئات المجتمع، وتعتبر المساكن الشعبية التي تتكون في ظلال المدن الكبرى أهم مظاهر هذا الخلل في البنية الاجتماعية الاقتصادية للدول النامية.

٢.٢.٣ التبعية للخارج

يؤدي طغيان انتاج المواد الاولية للتصدير، واستيراد المواد الاستهلاكية إلى نشوء التبعية التي تؤدي بدورها إلى افقار تدريجي للبلد بالاضافة لاستنزاف رؤوس اموال البلدان النامية من خلال بيع الاسلحة لها بعد تفجر الصراعات الداخلية.
تستنتج دائرة المعارف العالمية "إن التخلف من الناحية الاقتصادية هو جزء من آلة النظام الرأسمالي العالمي. انه يلعب دورا في هذا النظام. وكان هناك توزيع دولي للعمل لمصلحة الراسمالية العالمية، هذه المصلحة هي سبب بروز الدول النامية، وحافظت عليها لتخدم أغراض التراكم الرأسمالي. التخلف هو ثمرة الاستغلال والاستعباد.. ولا بد للتنمية ان تتموضع من منظور تحرر اقتصادي وطني"

٣. الطريقة الاجتماعية في دراسة التخلف

محكات التخلف الاجتماعية عديدة أهمها المحكات الاقتصادية والانتاجية يضاف اليها محكات خاصة بالسكان وأخرى تتعلق بالبنى الاجتماعية.
أما السكان يتصفون بخصائص اولية أهمها الانفجار السكاني الذي لا يعكس زيادة في الموارد الاقتصادية مما يخلق اختلال متزايد في التوازن يؤدي إلى مأزق اقتصادية واجتماعية حادة. يزداد الاختلال نظرا لقلة الإنتاجية النابعة من الأمية وسوء التغذية وقلة العناية

الصحية مما يساعد على تفشي الأمراض واستنزاف قوى الأيدي العاملة دافعة العمال الي الطفيلية والبطالة المقنعة، ولا يقتصر ذلك على العمل اليدوي، بل يتشيع في مختلف القطاعات الفكرية والإدارية والاقتصادية، حتى أن مفهوم العمل يصبح صعب التحديد كما يقرر لاكوست، هذه المحكات على صوابها ليست سوى أعراض اجتماعية للتخلف، انها تحتاج بنية متخلفة من الضروري بحثها هي الأخرى.

على مستوى البنية الاجتماعية للتخلف تعدد دائرة المعارف العالمية خمسة محكات: ١.انتقال العلوم من جيل الى اخر بشكل جامد إجماليا ٢.تحكم العادة والتقليد بالسلوك لا القانون ٣.نظام اجتماعي تحكمه مرتبيه جامدة ٤.تحديد المكانة الاجتماعية للفرد بحسب الطبقة التي ولد فيها وليس من خلال الكفاءة ٥.إنتاجية منخفضة جدا. وأهم من ذلك هناك مقاومة للتغيير تنبع من نظرة رضوخية للعالم مع بنية اجتماعية تسلطية وامتثال يعرقل عملية التغيير.

ولكن هذا التحليل الذي يرجع هذه الخصائص إلى التقليد والسلفية يتستر على الحقيقة التسلطية لدول العالم الثالث، التي نتجت أحواله بشكل أكبر من تحالف قوي معاصرة داخلية وخارجية ضد القطاع الأكبر من السكان خالقه بنية التسلط/الرضوخ، فهي ظاهرة سياسية بالمقام الأول تتميز بالقهر المفروض على مجمل السكان يسميها لاكوست "البنى الاجتماعية القامعة والمولدة للشلل".

التعارض بين الغنى المفرط لقلة من السكان وبوس الغالبية الساحقة يولد علاقات لا تقوم على العقد، بل تتصف بالتبعية. يرتبط الفلاح بمالك الأرض والعامل بصاحب رأس المال في علاقات عبودية تفرض عليه الرضوخ إذا أراد ضمان قوت يومه، هذه التبعية تظهر في كل القطاعات وفي مجمل العلاقات الانسانية، علاقات تسلطية في كل مكان. وترسخ السلطة الرسمية هذه التبعية من خلال أنظمة الحكم الاستبدادي كما ترسخها الادارة الفاسدة التي تخدم امتيازات القة ويتوج الكل جهاز شرطة وجيش قمعيين اساسا. هذه القلة متوجهة للخارج ومتحالفة مع الاستعمار خالقة بذلك انظمة اجتماعية واقتصادية هجينة ذات سطوة كبيرة. هذه القوة المسيطرة على الإنسان والانتاج هي لب البنية الاجتماعية المتخلفة وهي المعطل الأول لنمو البلدان المتخلفة.

تلتقي النظرة الاجتماعية مع الاقتصادية مع التقنية وحتى مع السطحية في أن لب مسالة التخلف هو بنية تتصف بالقمع والقهر، بالتسلط والخضوع، أي حرمان الانسان من انسانيته، وهو ما سنتناوله من خلال منظور نفساني تاليا.

ثانيا: المنظور النفساني للتخلف

أكدت المنطلقات التقنية والاقتصادية والاجتماعية، السطحية والدينامية على نوعية وتركيب البني المتخلفة، ولكنها أهملت البنى الفوقية (النفسية، العقلية، القيم الموجهة للوجود) التي تعتبر بجانب كونها نتاجا للبنى الاقتصادية والاجتماعية وما يحكمها من قيم ومعايير فيه بذاتها قوة متفاعلة جدليا مع البني التحتية بشكل يرسخها ويعزز وطأتها. فإذا كان تحالف القلة المحظوظة مع القوى الاجنبية يشكل أكبر عقبة في طريق التطوير لانه السبب الأبرز في ظاهرة التخلف وتضخمها، فإن البنية الفوقية النفسية التي تتلخص في خلق أنماط البشر وأنماط من الوجود متميزة بطابع التسلط والرضوخ تشكل مصدرا هاما لمقاومة هذا التغيير. والمثل الأفصح على ذلك المرأة التي يقع عليها الغرم الأكبر من الاستلاب من خلال ما تتعرض له من تسلط وقهر حتى تتبنى المرأة قيم سلوكية ونظرة للوجود تتماشى مع هذا القهر وتبرره جاعلة منه جزء من طبيعتها وبذلك فهي تقوم تحررها.

الاستلاب والتخلف النفسي هو فوق هذا وذاك من المحكات المادية، نمط من الوجود وأسلوب في الحياة ينبت في كل حركة وميل ومعيار وقيمة، انه نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الهدف من حياته ومن أسلوب انتماؤه. يبرز التخلف كهدر لقيمة الإنسان وقدسيته والاحترام الجدير به، هذا الهدر يتلخص في صورتين: عالم الضرورة والقهر التسلطي.

أما عالم الضرورة فهو تعبير عن الاستلاب الطبيعي الذي يتعرض له الإنسان المتخلف، انه اسير الاعتباط حين يرضخ لغوائل الطبيعة التي تهدد صحته وأمنه وقوته وسلامته، يولد ويعيش ويتعذب ويعاني ويموت بشكل اعتباطي، يقف عاجزا ولا يعلم أي نوع من الضحايا يمكن أن يكون ومتي؟

أما عالم القهر التسلطي فهو عالم سيادة القلة المهيمنة التي تمارس عليه العنف المادي والمعنوي، هذه العلاقة من السيطرة والرضوخ توجد بين الانسان العادي والقلة المسيطرة كما أنها توجد بين القلة المسيطرة والقوى الخارجية التي تدعمها كذلك، ليست علاقة تكافؤ ومساواة، بل علاقة سيادة وتبعية، السيد المستعمر يقوم يوميا "بإدخال العنف إلى عقول وبين المستعمرين وهو يدخل في وعيهم أنهم ليسوا بشرا وإنما أشياء" كما يوضح فرانز فانون في كتبه.

بدل الفهم والحوار هناك لغة السوط القمعي وبدل الإقناع هناك الاخضاع وليس ذلك من المستعمر فقط، بل من قوى التسلط الداخلي كذلك، ولا يقتصر ذلك على البلدان النامية، بل يطال العديد من الدول التي وصلت للتقدم التقني كذلك. التقدم الصناعي إذ يخلص الإنسان من قهر عالم الضرورة مازال عاجزا عن إعطاء الإنسان كل قيمته واعتباره، في تلك المجتمعات هو ما زال مجرد أداة.

التخلف بالمنظور النفسي يتجاوز مسألة التكنولوجيا والإنتاج ليتمحور حول قيمة الحياة الإنسانية والكرامة البشرية، ذلك هو المعيار الحقيقي، أما التقدم المادي فليس سوى مظهر جزئي لا يجوز أن يخفي المشكلة الحقيقية.

الفصل الثاني: الخصائص النفسية للتخلف

علاقة القهر

يعيش الإنسان المقهور في عالم من العنف المفروض، عنف الطبيعة الذي يجعله يعيش في عالم الضرورة بدون حماية او وسيلة امان، القلق على الصحة والرزق والأمن يلازمه طوال الوقت، ولا يجد سوي التمسك بالماورائيات والقوى التي تسيطر على الكون ويتعلق بالخرافة ويميل لأنسنة الطبيعة، فهي الأم الرحيمة تارة والأب القاسي تارة، وهو الطفل الذي يلازمه القلق إزاء قصاص الأب القاسي ومنع آلام المهلك. وكعجز الطفل يعاني الإنسان المتخلف من عجز شبه جذري أمام غوائل الطبيعة، ويحاول ادخال التنظيم على هذا الاعتباط بالقدرية والامثال الشعبية.
بالاضافة لقهر الضرورة يضاف قهر انساني من السيد المتسلط او الحاكم المستبد أو رجل الشرطة فلا يجد الانسان المقهور سوي الرضوخ والتبعية التي توقعه في الدونية كقدر مفروض، ومن هنا شيوع تصرفات التزلف للسيد وتعظيمه لاتقاء شره، عالم التخلف هو عالم التسلط واللاديمقراطية.
علي العكس تتضخم ذاتية المتسلط بشكل مفرط يحول علاقة انا-انت التي تتضمن المساواة والاعتراف الي انا-ذاك التشيئية التي تهدر الإنسان فلا تجعله ينظر إليه كبشري، انه يفقد التعاطف مع والإحساس بمعاناته وآلامه وحاجاته، ومن هنا القسوة البادية تجاه من يخضعون له، تلك اللامبالاة تجاه المعاناة.
يدخل المتسلط في وعي المستضعفين انهم ليسوا باناس بل هم اشياء، كائنات هزيلة مستضعفة وجبانة، ويفرض ذلك لا بالمنطق، بل، بل بالقوة والقسر حتى يصبح المقهور اتكاليا مستكينا مستضعفا فيترسخ في ذهن المتسلط اسطورة تفوقه وخرافة غباء وعدم ادمية المستضعف وهي الطريقة الاستعلائية نفسها التي تنظر بها الإمبريالية الصهيونية للعرب.
تتوزع هذه الديناميكية في كل علاقات المجتمع، تسلط ورضوخ في العمل والشارع والبيت والمجال العام والخاص، حتى بين الأم وأبنائها وبين المحبين وبعضهم، تسلط تملكي، تسلط من خلال اسر الحب.

اولا: مرحلة القهر والرضوخ

يشكل زمن الرضوخ والاستكانة الفترة المظلمة من تاريخ المجتمع بما فيها من سلبية جمود وتخلف، وهي المرحلة التي شجعت الأحكام التبخيسية المسبقة التي كونها المستعمر والمتسلط الداخلي عن الشعوب المقهورة: جماهير منحطة لا تستطيع حكم نفسها ولا استغلال امكاناتها وثروتها، ولابد لها من حاكم متسلط.
لم تر الكتابات الغربية عن التخلف سوي هذه المرحلة وهو أمر يدعوا للدهشة، حيث غفلت عن طاقة مطموسة للتمرد والانتفاضة في هذه الشعوب.
أبرز ملامح هذه المرحلة عملية التبخيس التي غرسها المتسلط في نفسية الجماهير، تتمثل في عدوانيته وقهره ذاتيا على شكل مشاعر إثم ودونية. يزدري الإنسان المتخلف ذاته ويخجل منها ويود لو يهرب من مواجهتها متهما اياها بالتقصير والتخاذل والجبن حتى يرى عقاب المتسلط كعقاب الطبيعة مستحقا له على تخاذله واستكانته، وبذلك يصبح حليف المتسلط الأول في حربه ضد نفسه والآخرين أمثاله الذين يزدريهم لأنهم يعكسون مأساته وعاره.
تكثر في هذه الحال الميول الانتحارية النابعة من تفاقم مشاعر الإثم وتراكم العدوانية المرتدة على الذات، ومن هنا يحدث تواطؤ بين هذه الميول المرضية وبين قوى القمع التي تدمر صحة المواطنين بإهمالها.

الا ان أبرز مظاهر اجتياف التبخيس والعدوانية التي يفرضها المتسلط هو الاعجاب به والاستسلام له في حالة من التبعية الكاملة تدفع الإنسان المقهور للاستزلام والتزلف والتقرب مما يجعل المتسلط يزدريه من جديد لرضوخه محملا اياه كل الوزر.
علي أن العلاقة ليست جامدة بهذا الشكل دائما ويغلب عليها واقعيا التجاذب الوجداني، التذبذب بين التبعية والرضوخ وبين الرفض والعدوانية الفاترة، يحاول المقهور الانتقام بأساليب خفية (الكسل والتخريب) أو رمزية (النكات والتشنيعات) وهذا يخلق ازدواج: رضوخ ظاهري وعدوانية خفية، فيصبح محاولة النيل من المتسلط قيمة بحد ذاتها باعتبارها نوع من البراعة والحذق. وهكذا يصبح الكذب جزء أساسيا من نسيج الوجود المتخلف، كذب في الحب والصداقة وكذب في ادعاء القيم السامية والرجولة، كذب في المعرفة الإيمان، كما يكذب المسؤول على المواطن، والتاجر على المشتري.
ينتج عن هذه الوضعية العلائقية وما يتبعها من إحساس بالعجز أمام المصير المهدد دوما مجموعة من العقد أهمها عقدة النقص وعقدة العار وعقدة واضطراب الديمومة

١- عقدة النقص

يجد الإنسان المقهور نفسه دائما في حالة عجز عن المجابهة متخليا عنها إما طلبا للسلامة وخوفا من سوء العاقبة أو يأسا في امكانية الظفر والتصدي فيفقد موقفه العام من الحياة ويقع في انتظار منقذ منتظر بشكل سحري، هذا المنقذ على عكسه تماما قوي ويتمتع بالجبروت. انسان العالم المتخلف يفتقر نظرا لما يعانيه من مشاعر دونية إلى الإيمان بالجماهير المقهورة على غراره، كل محاولة للتحريك ستجابه بمقاومة نابعة من الإحساس بالعجز عن تحمل المسؤولية الذاتية ومسؤولية المصير.
عقدة النقص تجعل الخوف يتحكم في الإنسان المقهور، خوف من السلطة ومن قوى الطبيعة ومن الآخرين ومن كل ما هو جديد كالعلم والتكنولوجيا.
تعمل الفئة المتسلطة بغية استمرار تسلطها على تغذية عقدة النقص والعجز هذه لدى الجماهير حتى تظل على تبعيتها واستكانتها وحتى لا تحاول اتخاذ زمام المبادرة في تقرير مصيرها بنفسها.

٢- عقدة العار

عقدة العار هي التتمة الطبيعية لعقدة النقص، الإنسان المقهور يخجل من ذاته ويعيش وضعه كعار وجودي يعجز يصعب احتماله، إنه في حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره، افتضاح عجزه وبؤسه ولذا فالسترة أحد هواجسه الأساسية، همه الأول نظرة الآخرين وتعليقاتهم، تلك التي تهدد مكانته الركيكه واعتباره الذاتي، ولذلك تحتل العزة والكرامة مكانة اساسية في خطاب المقهور: إبقاء الرأس مرفوعا والاحتماء من كلام الناس. يستطيع ان يعيش بدون خبز، ولكنه يفقد كيانه الإنساني إذا فقد كرامته وظل عاريا إما عاره. تلك هي النقطة التي تنهار معها الطاقة على احتمال مأساة القهر والبؤس. ولكن الرجل المقهور يسقط العار على المرأة فهي موطن الضعف والعار ويصل التطرف لجعل القتل مبرر اجتماعيا تحت اسم جناية الشرف، مبررا لأنه يعتبر انتفاضة مشروعة لاستعادة الكرامة والسمعة التي هدرت.
ليست عقدة العار وقفا على الفئة المقهورة، بل هي عامة في المجتمع حتى الفئة ذات الحظوة لا تخلو منها كما أنها لا تخلو من عقدة النقص إزاء الأجنبي المستعمر الذي يشكل نموذج الرقي بالنسبة له.

٣- اضطراب الديمومة

الماضي والحاضر والمستقبل تشكل الأبعاد الثلاثة للديمومة أي التجربة الوجودية المعاشة زمنيا، كل بعد يتحدد بالبعدين الباقيين، وعجز الإنسان المتخلف عن التحكم بمصيره مرتبط باضطراب الديمومة. طول معاناته تضخم آلام الماضي وتأزم معاناة الحاضر وتسد آفاق المستقبل، القهر والعجز وانعدام الضمانات المستمرة ماضيا وحاضرا تصبغ المستقبل بالتشاؤم فتسد أفقه ويفقد الإنسان المتخلف الثقة بامكانية خلاصه. يهرب الانسان المتخلف من هذه الازمة الوجودية بالغرق في الماضي الخرافي او الواقعي ويغرق في ممارسات تنسيه واقع المؤلم كالذكر والمخدرات والزار والتخريف.
على عكس حلول الهروب وبالإضافة إليها يشيع في العالم المتخلف الاجترار السوداوي للمأساة الوجودية، وهو الطابع الحزين على الحالة المزاجية للإنسان المقهور، طابع الحزن يسيطر على كل شي كما نلاحظ في سيطرة المراثي على الأغاني، والقصص، والملاحم الشعبية ،والأفلام.
تتفاعل عقدة النقص والعالم واضطراب الديمومة فيما بينها مما يزيد من حدتها لدرجة صعبة الاحتمال وهكذا يغرق الإنسان المقهور في عجزه وضعفه واستسلامه إزاء قوي يحس بانها أكبر منه تذيقه مرارة الآلام المعنوية والمعاناة الوجودية التي لا تسمح له بالاحتفاظ

بالتوازن النفسي الضروري للاستمرار في العيش، وهكذا عاجلا او اجلا، لا بد للتوتر أن يزداد وللعدوانية أن تتراكم. وهنا يدخل في زمن الاضطهاد قبل الوصول إلى مرحلة التمرد والانفجار.

ثانيا: مرحلة الاضطهاد

يمثل الاضطهاد مرحلة وسطى بين حالة الرضوخ ومرحلة التمرد والانتفاض، ويعتمد درجة الاضطهاد وصورته على بنية المجتمع من ناحية وعلى المعادلة الشخصية للفرد من ناحية ثانية تبعا لقواه النزوية وتركيبته النفسية.
في مرحلة الاضطهاد تكون الحالة النفسية قد بلغت درجة عالية من التوتر الانفعالي والوجودي العام ويدخل في مرحلة الغليان الداخلي للعدوانية التي كانت مقموعة بشدة وموجهة نحو الذات.
لب الشعور الاضطهادي هو التفتيش عن مخطي يحمل وزر العدوانية المتراكمة داخليا، النفس لم تعد تحتمل فلا يجد الانسان المقهور امامه سوى لوم الآخرين واتهامهم بالذنب وبالتالي بالعدوانية. تحويل الاخر بهذا الشكل الي مصدر للعدوانية يفسح المجال لإمكانية تبرير الاعتداء عليهم، الاعتداء يصبح مشروعا لأنه يتخذ طابع الدفاع عن النفس. إلصاق العيب الذاتي بالآخر يحوله لرمز للنقص والعار لا بأس من الاعتداء عليه وتدميره، يخلق ذلك في المجتمع مناخ عام من العنف اللفظي والرمزي وكل أشكال التعبير غير المباشر الذي لا يتضمن مواجهة يسبغ العلاقات الاجتماعية بطابعه العنيف.
هذا المناخ هو ما استغله المستعمرون والمتسلطون الداخليون، حين فسر بشكل مزور على أنه جزء من طبيعة بعض الشعوب التي عانت طويلا من القهر، فيقولون: إنهم لا يفهمون إلا لغة القوة. هذا مأزق الإنسان المقهور، أنه ضحية عنف مزمن ومنظم، ولكن يطلب منه أن يكون مهذبا ولطيفا ويلام على خشونته وتوتره، في الحقيقة ما يطلب منه هو الرضوخ.

تتحول الحالة النفسية في مناخ العنف لأشكال اخرى اهمها الحساسير والاستجابات المفرطة في شدتها لما لا تتناسب مع أسبابها المادية المباشرة ليصل للقتل على خلاف في أفضلية المرور، أتفه الاسباب قد يكون شعلة انفجار قنبلة. كما أن هذه الممارسات تساعد على إسقاط مسؤولية التقصير الذاتي على الآخرين، فأي فشل يصيبني هو بسبب حسد الآخرين المتربصين بي وليس قلة حيلة وتدبير، فهم من يتحملون وزر المأساة الذاتية.
ولكن هذا الآخر الذي يتحمل وزر القهر ونصب عليه نقمتنا ليس العدو الحقيقي فنحن نشبهه وتربطنا به صلات نابعة من المأساة المشتركة، العلاقة معه ليس اضطهادية صرفه وليست علاقة تعاطف خالص. لذا لا بد بعد فترة تطول أو تقصر يحصل الوعي بمصدر المأساة الحقيقي وهو المتسلط الداخلي وحليفه الخارجي، ولابد بالتالي من توجيه العدوانية والعنف نحو هذا المصدر بعد فترة إعداد واختمار تنضج خلالها إمكانية التمرد والانتفاضة.

ثالثا: مرحلة التمرد والمجابهة

"العنف المسلح هو السبيل الوحيد ليتخلص الشعب المقهور من عقد النقص والجبن والخوف التي غرسها في عروقه الاستعمار الغربي، انه ايضا من خلال هذا العنف الثوري يحقق الشعب ذاته وينقي نفسه من الكسل والخبل والاتكالية.. كما يحرره من مواقفه التأملية البائسة ويبعن عنه الخوف ويرد إليه اعتباره في نظر نفسه" بسام الطيب عن فرانز فانون من كتاب: معذبو الأرض

يصل المجتمع المتخلف بالضرورة إلى العنف في مراحل تطوره، بعد القهر والاضطهاد واليأس من الحوار السلمي والرضوخ يترسخ الاحساس ضرورة العنف ويلزم رد فعل حرج في الخيار بين الفناء أو المجابهة. يمد العنف في مجابهة المتسلط بنوع من الإحساس بالقوة التي تصبح رمز الحياة، المهمة الأساسية في هذه المجابهة هي التغلب على خوف الموت. ان الانتصار على الموت هو قضاء على اجتياف التبخيس الذاتي الذي يعني النقص والمهانة ومن هنا نلاحظ أهمية الشعارات التي تطرح في بداية مرحلة التحدي والانتفاض: استعذاب الموت والشهادة وقوافل الشهداء.
من خلال السلاح يحدث انقلاب جذري في الأدوار، يتحول الضعف إلى قوة ويصبح للسلاح دلالة سحرية فهو درع وحماية ومن هنا مباهاة الإنسان المقهور باستعراض سلاحه وكيانه الجديد الذي قضي نهائيا على الرضوخ، وبما أن الحاجة للتحرير واستعادة الاعتبار الذاتي ملحة ومزمنة فان الشعب المقهور لا يستطيع الانتظار طويلا، انه يريد حلا سحريا للقضاء على الماضي الاسود البائس إلى غير رجعة. هذه الحاجة الي خلاص سريع من خلال القتال قد تخلق عقبة في وجه التنظيم والإعداد لمعركة طويلة النفس.

لا يعم استخدام القوة كل الشعب مباشرة. لابد من قلة تقود العمل وتتماهي الجماهير بهذه القلة متمثلة شيئا من بطولتها وجاعلة منها رموزا للجماعة.
عندما ينتفض الشعب المقهور ويحمل السلاح ويقهر الموت منتصرا على خوفه منه يلاحظ تغير في التجربة المعاشة والسلوك فتتبدل عقدة النقص بعقدة تفوق واستعلاء، الإنسان العادي غير المنتمي غير المثقف يعوض عن نفسه بنوع من التفوق والاستعلاء على من حوله، يشعر انه لا يقهر فيكسر القواعد التي حكمت حياته ويشعر بدل الاجترار السوداوي بالسيادة على مصيره وكأن الزمن قد أذعن له فتتسارع الحياة وتسود العجلة وتظهر التصرفات الاهتياجية بما فيها من تسرع وصخب وأمل هائل وتفاؤل مفرط في المستقبل بدون سند واقعي.
من اخطار هذه المرحلة تحول الإنسان المقهور الذي حمل السلاح دون ثقافة كافية إلى متسلط جديد يبطش ويتعالى ويتعسف ويزدري ويستغل قوته الجديدة في المكسب المادي والتحكم في الآخرين. ومن الإشكالات الشائعة أيضا الانشطار الذي يحدث بين القول والعمل بين الثورية النظرية والممارسة المسلحة والحياة اليومية.

التخلف ظاهرة كلية، وعلاجها يجب أن يكون شموليا يتنبه إلى كل مواطن مقاومة التغيير التي يتضمنها ويتصدي لها بنفس طويل، وأشد نقاط المقاومة استعصاء على التغيير هو البنية النفسية التي يفرزها التخلف بما تتميز به من قيم ونظرة للكون.

الفصل الثالث: العقلية المتخلفة

تنبع أهمية دراسة الذهنية المتخلفة وخصائصها للدور الحاسم الذي يلعبه الفكر في تقدير الواقع وتكوين الأحكام الموجهة للسلوك. هذه العقلية إذا اتصفت ببعض بخصائص سطحية عاجزة عن الغوص في الواقع والسيطرة عليه اتسمت بالجمود والقطيعة وتؤدي إلى عقبات معرفية جدية تعرقل خطط التنمية التي لا بد أن تنطلق من التقدير الدينامي الشمولي للواقع. انها تعطي المبررات الذهنية لمقاومة التغيير.

أولا: الخصائص الذهنية للتخلف

١- الخصائص الذهنية المنهجية

تتلخص الخصائص المنهجية في امرين اساسيين: اضطراب منهجية التفكير من ناحية، وقصور التفكير الجدلي من ناحية ثانية، ويتلخص الأمر في عجز الإنسان المتخلف إزاء ظواهر الطبيعة والحياة والعلاقات، هذا العجز يجعله راضخا مستسلما تجاه ما يبدوا عليها من غموض وتداخل، ويرتبط ذلك بعقدة النقص ولذلك فهو يتوسل وسائل سحرية او خرافية لسد هذا النقص. ومن وجهة نظر التحليل النفسي فهو خصاء ذهني على المستوى اللاواعي، ويتخلص هذا الخصاء بنوع من صد القدرة على الفهم ونوع من توكيد الذات في مواجهة العالم، يعزز هذا الخصاء الرضوخ الاجتماعي مما يدفعه إلى التعسف هربا من عجزه فيطلق أحكام مسبقة وآراء متسرعة مدعيا القدرة على آنية الفهم دون ان يبذل اي مجهود فكري.

١ .١ . اضطراب منهجية التفكير
يتلخص الاضطراب في سوء التنظيم الذهني في التصدي للواقع. تتعامل الذهنية المتخلفة مع الواقع دون خطة مسبقة ذات مراحل منطقية محددة سلفا، الفوضى والعشوائية والتخبط هو ما يميزه. وهكذا بدلا من تنظيم الواقع والسيطرة عليه تزيد من حدة ما يبدو عليه من فوضى. ففي مناقشة مثلا تجد الحديث يتشعب ويذهب كل مذهب وينتهي دون تكوين تصور واضح عن المسالة ناهيك عن ايجاد حلول لها.
بينما نرى العقلية المنهجية تتبع خطوات لبحث المسائل مثل تعريفها ثم تحديد الهدف المطلوب ثم جمع المعلومات وتحليلها ثم رسم خطوات للتعامل مع المشكلة وما يتخلل ذلك من خطوات أكثر تفصيلا، نجد الذهنية المتخلفة غارقة في التخبط في كل مرحلة ويغلب على محاولاتها التجربة والخطأ بناء على عوامل ذاتية وانفعالية، ولا يتوقف هذا التخبط والمحاولة والخطأ على الأمور النظرية، بل هو نمط شايع في التصدي للحياة بكل قضاياها اليومية.
يميز هذا التخبط والعشوائية الفئات غير المتعلمة، ولكنه لا يقتصر عليها مطلقا، بل ينتشر بدرجة عالية بين اغلب فئات المتعلمين، وأبرز الأمثلة على ذلك طالب الجامعة الذي رغم حفظه المادة عن ظهر قلب لا يعرف ماذا يختار للإجابة، التشويش والتداخل يجعلانه عاجزا

عن الاستفادة من معلوماته. ويمتد الأمر للكتاب الجامعيين الذين يفتقرون إلى الدقة والتنظيم المنهجي في كتابتهم مما يوقعهم في التكرار وتكديس المعلومات.
يؤدي هذا الاضطراب إلى بقاء الإنسان المتخلف على مستوى الملاحظة الساذجة والانطباعات الأولى مكتفيا بالمعرفة الحدسية وهكذا يعجز عن الغوص في تحليل التفاصيل والمقارنة بينها. مصاب بما يسمى في علم النفس اسم "الحشرية الممنوعة" فهو أسير النقاط العمياء في عملية ادراكه التي تظل قاصرة ومليئة بالثغرات. وبالإضافة للعجز عن التحليل هناك أيضا عجز عن التوليف وهو إعادة ترتيب المعلومات التي يستخرجها من الواقع ويبني عليها مستفيدا منها.
وبهذا المعنى فإن الذهن المتخلف يعاني من قصور في الفكر النقدي، انه متحيز بفعل العوامل الانفعالية والعاطفية في أوالية التفكير، وهو قطعي في تحيزه، فأما ضد او مع أمر ما، وبالإضافة الى قصور عمليات التحليل والتوليف وقصور الفكر النقدي، يتسم الذهن المتخلف بانعدام المثابرة، التركيز في التفكير في أمر محدود زمنيا، سرعان ما يداخله التعب والتشتت، ولذلك تكاد تكون الخطط طويلة المدى مستحيلة، لا قدرة على الجهد الطويل، النجاح السحري السريع او الياس في امكانية الوصول.
تتلخص كل الخصائص السابقة في العجز عن التخطيط، فهو ينظر للواقع بشكل جزئي زمانيا ومكانيا. ان الآنية، العيش في الحاضر وانسداد أفق المستقبل، هي إحدى الخصائص النفسية للوجود المتخلف، انها نتيجة انعدام الضمانات وفقد السيطرة على المصير، وهكذا يتقلب الإنسان المتخلف بين التفاؤل والتشاؤم تبعا لطبيعة اللحظة الراهنة، يفرط في تفاؤله أمام الظفر العابر ويفرط في تشاؤمه أمام الانتكاسة الآنية.
أما مكانيا فالإنسان المتخلف يعجز عن النظر أبعد من دائرة ضيقة هي حدود محيطه المباشر، وهذا التحديد للمجال الحيوي يؤدي إلى تضخيم الأمور حتى التافه منها، تأخذ القضايا البسيطة أبعادا مفرطة في حدتها لدرجة تطمس معها رؤية ما عداها.
لا يقتصر هذا العجز عن التخطيط على المستوى الفردي، بل إن التخطيط الرسمي يشكو في البلدان النامية من جزئية النظرة ومحدوديتها. توضع مشاريع كثيرة وتصرف عليها الأموال الطائلة، ولكنها تظل مشاريع معزولة او قطاعية لا تدخل ضمن تخطيط شامل ، لا تدرس أبعادها ونتائجها انطلاقا من حالة مختلف قطاعات المجتمع، فيودي ذلك لفتح فرصة للفساد والتلاعب وينتهي المشروع بدركات هايلة من الفشل.

١ .٢ . قصور التفكير الجدلي

تنطلق الذهنية المتخلفة في نظرتها للأمور من مبدأ العزل والفصل، الشيء قائم بذاته منفصل عن بقية الأشياء والظواهر، ثابت بلا تغيير أو دينامية او صيرورة، تلك التي تميز المنهج الجدلي.
تتحكم نظرية الجوهر الثباتية والنظرة المتخلفة إلى العالم. فالأشياء تبدو ساكنة بصفة مستديمة ويبدوا العجز واضحا عن رؤية التحولات الحتمية في هذه الأشياء، وعندما تدرك الحركة في ظاهرة ما فهي تدرك فقط كحركة ميكانيكية في اتجاه واحد، ذلك هو مبدأ السببية الميكانيكية ذات الاتجاه الواحد بدون قدرة على رؤية قانون التناقض أو تكامل الأضداد.
إن القصور الجدلي الذي يميز الذهنية المتخلفة يجعلها عاجزة عن النفاذ إلى مختلف مستويات وأبعاد الظاهرة، فلكل ظاهرة مستويات متعددة من أقصى الذاتية الى اقصى الموضوعية ومن أقصى الخصوصية الى اقصى العمومية وهي محصلة هذه المستويات جميعا في تحديدها المتبادل، يخلق هذا القصور حالة من التصلب الذهني تجعل الإنسان المتخلف يفتقد المرونة والقدرة على بحث الأمور من جوانب متعددة ومنظورات شاملة فهي إما أو دائما دون تداخل أو نسبية.
ولابد من التأكيد أن هذا القصور في التفكير الجدلي واضطراب منهجية التفكير ليس وليد خلل عضوي او انحطاط تطوري، بل وليد عوامل القهر والاعتباط التي يخضع لها الإنسان المتخلف، قصور منهجية التفكير يتناسب بشدة مع درجة القهر المفروض، وجمود البنية الاجتماعية.

٢- الخصائص الذهنية الانفعالية

الوجود المتخلف معاش وجدانيا أكثر مما هو مصوغ ومنظم عقليا، فبينما نرى طغيان العقلانية والحياد الانفعالي على أسلوب مجابهة الواقع والتصدي لمشكلاته في البلاد الصناعية، نلاحظ ان انسان العالم المتخلف يرزح تحت عبء انفعالاته التي تفيض على العالم ملونة اياه بصبغة ذاتية واضحة. طغيان الانفعالات بهذه الطريقة ظاهرة مألوفة في الازمات، ولكنها تكاد تكون الاسلوب الاساسي في الوجود لأنه يعاني من أزمات مزمنة تتخذ طابع المأزق الذي لا خلاص منه. هذا المأزق يجعله يعيش في حالة دائمة من التوتر والانفعالي معطلا القدرة على الحكم الموضوعي.

طغيان العاطفية والانفعالية للإنسان المتخلف لا ييسر له التوازن الضروري بين الانفعال والعقل، القعر والقلق والدونية تشل القدرة على الحكم الموضوعي.
يؤدي هذا الطغيان إلى الإسقاط كحيلة دفاع نفسية للتخلص من وطأة الضغط، فيصب الإنسان المتخلف انفعالاته على العالم ويصطبغ العالم بقدر التوتر الداخلي الذي يعاني منه. وهكذا ينجرف الإنسان المتخلف في دوامة الانفعال النشط (العدوان والاقدام) او الفاتر (المعاناة واجترار الآلام الوجودية) مما يجعل العالم اعتباطي وغير منطقي.
ينتج عن هذه الحالة سرعة تدهور الحوار العقلاني والتعصب والتحيز وسرعة إطلاق الاحكام القطعية وسيطرة التفكير الخرافي كوسيلة لتخفيف الآلام من خلال الأوهام، ويتناسب انتشاره مع مقدار العجز عن التصدي لمشكلات الحياة المختلفة فيواجه الإنسان المتخلف العالم بعقلية طفل يخاف من الوحش تحت سريره
إن طغيان الانفعالات على هذه الصورة يعطل التكيف مع الواقع لأنه يؤدي الى انحسار المجال الحيوي. تنحسر افاق المستقبل ويلغي الواقع العريض الذي يعطي الأشياء والظواهر حجمها الحقيقي.

ثانيا: عوامل تخلف العقلية

كل ما عرضناه الى الان من ملامح العقلية المتخلفة، سواء من ناحية اضطراب منهجية الذهن ا، قصور التفكير الجدلي أو طغيان الذاتية والانفعال والخرافة والتي تتلخص جميعا بموقف عاجز عن السيطرة على الطبيعة والمصير، خصائص تستدعي التفسير والتعليل ولا يمكن بحال اعتبار النظرات الغربية القديمة التي برزت مع المد الاستعماري بأنها عملية، تلك النظريات التي تفسر التخلف بقصور تطوري لسكان هذه البلاد، فهو بدائيون لم يتجاوزوا المرحلة الحيوانية أو الطفلية في أحسن الاحوال. كل هذه التفسيرات تفتقر للنظرة العلمية، إنها مجرد تحيزات وأحكام مسبقة.

هناك من درس ضمن هذا المنظور مسألة التخلف في العقلية، خصوصا على مستوى الممارسة السياسية، من خلال الطبيعة الزراعية للمجتمع العربي. من رأي د. نديم البيطار" أن أسباب التخلف ترجع إلى الخصائص الزراعية التي يتصف بها الإنسان العربي وأهمها في نظره ما يلي:
- الشعور بالعجز عن السيطرة على الطبيعة والتاريخ. بينما يتمكن الإنسان المتقدم من ذلك باستخدام التقنيات والعلوم المضبوطة.
- ربط ما يحدث بتغيرات النفوذ والسلطة، أي رد الأمور إلى قوى ذاتية لا إلى قوانين طبيعية وتاريخية
- انعدام التكنولوجيا والاعتماد على وسائل بدائية من حيوانات ويد عاملة، مما يجعل العلاقة، علاقة سلطة ذات طابع انفعالي.
- الاعتماد في المجتمع الزراعي على الظواهر المحسوسة الملموسة في الطبيعة والعلاقات إلا على القوانين العلمية.
-تحكم التقليد في السلوك، من خلال تجميده من ناحية، وشده إلى الماضي من ناحية ثانية. هذا التقليد يغرس جذوره عميقة وعنيدة في أعماقنا مؤثرة على الممارسة والنظرة إلى الأمور.

ذلك كله صحيح، ولكنه لا يغطي كل الظاهرة ولا يقدم تفسيرا كافيا لمسألة التخلف في الذهنية. يجب بادئ ذي بدء التمييز بين المجتمع الزراعي المتخلف، والمجتمع الزراعي المصنع. فالأمر لا يكمن في الزراعة بحد ذاتها بقدر ما هو نتاج للبنية الاجتماعية. يشير كلام البطار بشكل اساسي الى نظام التسلط والقهر أكثر مما وصل إليه باستنتاجه، فليست الدابة وحدها تقاد بالسوط، بل الفلاح المقهور أيضا. كما أنه يسرد من ضمن أسباب التخلف ربط التغيرات الاجتماعية بتغيرات النفوذ والسلطة، واضعة بذلك الاصبع على لب مسألة التخلف دون أن يعلن ذلك صراحة.
إن لب تخلف العقلية يكمن في أسباب اجتماعية سياسية، هي المسؤولة عن نمط الإنتاج وأدواته وتقنياته وانعكاساتها على الذهنية. هذه الأسباب تذهب في رأينا، في الوطن العربي على الأقل، في اتجاهين أساسيين مترابطين هما: سياسة التعليم في المجتمع، وعلاقات التسلط والقهر السائدة فيه.

١- سياسة التعليم وتخلف الذهنية

لا شك في أن مدى تفشي الأمية في العالم النامي، مسؤول بالدرجة الأولى عن استمرار الذهنية غير العلمية التي تسيطر عليها الخرافة. بالإضافة لذلك تكمن العلة، في الوطن العربي، كما في العديد من أقطار العالم الثالث، في نوعية التعليم ومدى تأثيره على تغيير الذهنية .

انفصال كامل، ففي الحياة اليومية نرى التقليد وانتشار الخرافات والنظرة المتخلفة إلى الوجود (بما فيها من اعتباط وتسلط ولا منهجية) هي السائدة. أما في المناسبات العلمية فنرى الواحد من هؤلاء، أو بعضهم، يحلق في الأجواء العليا ولكن للحظات .
ما زال التعليم في مختلف مراحله وبشكل إجمالي، سطحية في معظم البلدان النامية في طرقه وفي محتوياته . طرق التعليم ما زالت تلقينيه إجمالا، تذهب في اتجاه واحد على اكتساب التفكير النقدي الجدلي.
تمارس عملية التلقين بالضرورة من خلال علاقة تسلطية : سلطة المعلم لا تناقش (حتى أخطائه لا يسمح بإثارتها، وليس من الوارد الاعتراف بها) بينما على الطالب أن يطيع ويمتثل. هذه العلاقة اللاعقلانية تعزز النظرة الانفعالية إلى الوجود وهي مسؤولة إلى حد بعيد عن استمرار الذهنية المتخلفة، لأنها تشكل حلقة من حلقات القهر الذي يمارس على مختلف المستويات الرتيبة في حياة الإنسان المتخلف.
المواد الدراسية تظل إجمالا غريبة عن الإطار الحياتي للتلميذ. إنه يتعلم عموما إما محتويات دراسية مستوردة من خارج المجتمع (نظريات وعلوم الغرب مطبقة على ظواهره) في المراحل العليا من التعليم، وإما مواد لا تمت إلى الواقع بصلة.
معظم المناهج تعالج قضايا تمت إلى حياة الطبقة المسيطرة، وتغرس في الطفل المثل العليا السائدة لهذه الطبقة، والتي لا يمكنه عملية وواقعية ممارستها في حياته اليومية.

ومن مشكلات التعليم الشائعة في البلدان النامية، الانفصام بين لغة العلم ولغة الحياة اليومية، العلوم تدرس بلغة أجنبية، والعلم كاللغة الأجنبية التي ندرسهم بها، يظل غريبة عن عالمهم وواقعهم، يشكل في أحسن الحالات قشرة خارجية لا تتجاوز السطح. بينما عالمهم المعاش تحكمه اللغة الأم المشحونة بالانفعالات والغيبيات والخرافة، والبعيدة كل البعد عن العلمية.
إن مسألة تعريب العلوم المضبوطة وتدريسها باللغة الأم من مسائل الساعة. وهي تمس قضية ديمقراطية التعليم الصميم.
الواقع إن عدم التعريب يهدف إلى الحفاظ على امتيازات القلة المسيطرة، التي هي وحدها تتقن اللغة الأجنبية وتتعامل بها، لأنها لغة حلفائها الأجانب.
على العكس من ذلك فإن الفئة المسيطرة تمارس صنوفه من الضغط والإرهاب المعيشي على المتعلمين الذين يحلمون بالتغيير . كما أنها تشجع على انتشار الخرافات واستمرار النظرة التقليدية المتخلفة إلى الوجود. وتستخدم هذه النظرة في تكوين رأي عام مستعد لمقاومة دعاة التطوير.

٢- علاقات التسلط والقهر وتخلف الذهنية

جميع أسباب تخلف الذهنية تتضمن عنصر قهر حياتي يقع الإنسان المتخلف ضحية له. قهر الطبيعة وغوائلها، قهر المتسلط في المجتمع الزراعي، قهر التقاليد العشائرية الجامدة التي تشل الفكر، وتمنع الموقف النقدي من ظواهر المجتمع وأنظمته، ثم القهر الذي تمارسه السلطة في المدينة على اختلاف، وجوهه، وأشكاله، وتبريراته. كل ذلك يخلق جوا عاما من العنف يمارس على الشخصية، مانعة تفتحها وانطلاقتها وتصديها بشكل أوثق لمختلف قضاياها الوجودية .
ابن العشيرة، وابن القرية المتأخرة كلاهما ملك لعشيرته ولقريته (مالية وجسدية وحياتية وجنسيا) وبالتالي فذهنهما ليس ملكا لهما. القيود المفروضة عليهما تؤدي إلى استلاب إمكاناتهما النقدية والتحليلية والجدلية.
المرأة تشكل مثالا صارخا على هذا الاستلاب. إنها ملكية اجتماعية (العشيرة، أو القرية، أو الأسرة، أو الزوج وقبله الأب والابن والعم والخال)، كيانها ليس ملكا لها.
وتفرض المرأة على أطفالها هيمنتها العاطفية كوسيلة تعويضية عما لحق بها من غبن باسم الأمومة المتفانية . تغرس في نفوسهم التبعية من خلال الحب. ينشأ الطفل بعقول انفعالية، خرافية، عاجزة عن التصدي للواقع من خلال الحس النقدي والتفكير العقلاني.
يأتي الأب، بما يفرضه من قهر على الأسرة من خلال قانون التسلط والرضوخ الذي يحكم علاقاتها، ليكمل عمل الأم. يغرس الخوف والطاعة في نفس الطفل ويحرم عليه الموقف النقدي مما يجري في الأسرة.
وتتابع المدرسة عملية القهر والشلل الذهني التي بدأت في الأسرة من خلال سلسلة طويلة من الأنظمة والعلاقات التسلطية يفرضها نظام تربوي متخلف، ومعلمون عاجزون عن الوصول إلى قلوب الطلاب وعقولهم إلا من خلال القمع. وتتحول الدراسة إلى عملية تدجين، تفرض الخصاء الشخصي والفكري على الطفل، كي يكون مجرد أداة راضخة.
تتابع سلسلة القمع والقهر المفروضين على الذهن والنفس جميعا أثناء التدريب المهني، وأثناء العمل، وفي كل مكان. إنها الخاصية الأساسية للعلاقات السائدة في العالم المتخلف.

الفصل الرابع: الحياة اللاواعية

أولا: مقدمة

تشكل الحياة اللاواعية الوجه الخفي للتجربة الوجودية للإنسان. وتكتسب كل وزنها وتأثيرها من خاصيتها الأساسية، وهي الإفلات التام من سيطرة الوعي والإرادة ، من ناحية، ومن شدة ومدى الضغط الذي تمارسه المكبوتاته على جميع أوجه النشاط الحياتي من ناحية ثانية. اللاوعي يتغلغل في كل حركة وسكنة وتوجه ونظرة وقيمة تحيط بحياتنا أو تعطى لها.
هذه المسلمات المنهجية النفسانية هي التي أدت إلى نشوءعلم النفس الاجتماعي العيادي، أو التحليل النفسي للمعاش الاجتماعي للإنسان. العلاقة جدلية والتحديد متبادل بين الاجتماعي واللاواعي . فالبنية الاجتماعية بمؤسساتها الرئيسية تشكل الشخصية الإنسانية في قوالب خاصة. تنقش نظامها السائد في أعمق أعماق الإنسان، من خلال تشكيل حياته اللاواعية (مستودع النزوات وما يرتبط بها من أنماط العلاقات الأثرية الأولية). ولقد أصبح معروفة من الناحية النفسية، أن نمط الشخصية وبنيتها هو نتاج نظام العلاقات الأولية الذي يظل فاعلا في اللاوعي.
ونخلص من ذلك إلى أن شدة وعمق تأثير وطأة وضعية القهر المميزة للمجتمع المتخلف لا تتوقف على بعدها الاجتماعي فقط، بل تتعزز من خلال الانعكاسات اللاواعية التي تثيرها وتصاحبها.

ثانيا: الدينامية اللاواعية للإنسان المقهور

١- علاقة التسلط والقهر، السادومازوشية ، وقلق الخصاء

نظام التسلط والقهر، يأخذ على المستوى اللاواعي شكل العلاقة السادومازوشية. هناك من ناحية طرف قاس، ظالم، مستبد، ينزل الأذى والعذاب بضحيته، لا يحس بالقوة إلا من خلال التحقق من ضعف الضحية الذي كان هو سببه.
السادية في الأصل عدوان قبل أن تكون جنسا. والمازوشية معاناة مادية وجسدية ومعنوية قبل أن تكون تلذذا جنسية بالألم. وأهم من المازوشية المادية ، المازوشية المعنوية، أي وضعية الرضوخ والاستسلام للمهانة والتسليم بالضعف الذاتي وبسطوة السادي.
السادي يعنف ويقسو هربا من مازوشيته الداخلية، من مشاعر الذنب التي تقض أعماق وجوده. وكلما زادت قسوته دل ذلك على شدة ذعره من أن ترتد عدوانيته إلى ذاته فتدمرها.
أما المازوشي فهو يرضخ ويستنزل الأذى بنفسه دفاعا ضد قلق ساديته التي يخشى توجهها إلى الخارج، وإفلاتها من سيطرته بشكل يدمر الآخر وبالتالي يدمر الذات معه. المازوشي يمكن أن ينقلب عدوانيا، والراضخ يمكن أن يتحول إلى متمرد، يحطم سطوة المتسلط حين يتجرأ على تحمل تبعات عدوانيته .
تأخذ الوضعية السادومازوشية في لا وعي الإنسان دلالة الخصاء وهو قانون الأب الذي يفرض الخصاء (المنع) هو الذي يدفع الطفل إلى النمو ليصبح مثل أبيه في قوته ويتمكن من الحصول على امرأة ما، تتضمن هذه العلاقة الحب والاعجاب بالاب ولكنها تتضمن أيضا الرغبة في تجاوزه والقضاء عليه.
وضعية الإنسان المقهور تفجر إذا قلق الخصاء، الذي يتضمن الشعور بالتهديد الدائم، قد يأتيه في أي لحظة من الخارج من المتسلط، وكل أدوات السلطة) من ناحية، ويتضمن مشاعر العجز وعدم الاكتمال، تميز وجوده الذي يعاش تحت شعار المهانة من ناحية أخرى. قلق الخصاء يزعزع كيان الإنسان المقهور ويخل بتوازنه، فهو يولد الآلام المعنوية التي لا تحتمل والتي تمس صورة الذات وقيمتها، وتصيب الاعتبار الذاتي في الصميم. الاحتماء بالزعيم المنقذ، التعلق بالأبطال، كاللجوء إلى الأولياء، تحمل جميعة الدلالة ذاتها من الناحية اللاواعية. إنها عملية إيجاد نوع من التوازن مع صورة الأب القاسي المسيطر المهدد، من خلال خلق صورة الأب العطوف الحامي والمنقذ الذي يتعلق به.
أما الإفراط في الذكورة فإنها تأخذ غالب الأحيان أشكالا استعراضية متعددة. وبمقدار توكيد هذه الذكورة في مظاهرها الخارجية، من خلال كل أنواع المبالغة بالقوة الجنسية القضيبية والأهمية القصوى التي تعطى لهذه القوة، بمقدار ما يكمن في اللاوعي مشاعر نقص وعجز.

٢- اعتباط الطبيعة، صورة الأم السيئة، وقلق الهجر

الطبيعة، الأرض، الوطن، هي جميعا الأم. فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللاواعي بين الطبيعة، النمط الحسي من الوجود، اللاعقلانية، والصور الأمومية، الطبيعة الغنية التي توفر الغذاء والسكن هي الأم الحنون. وعلى العكس تمثل الطبيعة القاسية، التي تحمل خطر الهلاك، وخطر الكوارث المختلفة صورة الأم القاسية.

عدم القدرة على السيطرة على الطبيعة يجعلها تبدو اعتباطية في نظر الإنسان المتخلف، وهو يثير في لاوعيه أكثر المخاوف طفلية وبدائية، الخوف من هجر الأم له، الخوف من الوحدة والخواء الداخلي.

الحياة القاسية، كالطبيعة الغاضبة، ليست مصدر معاناة لأسباب اقتصادية معيشية محضة، بل كذلك لما تفجره من عدوانية طفلية كامنة في أعماق اللاوعي ، ترتد على الذات على شكل تهديد خارجي. إن السوداوية الشائعة في أغاني الجماهير المقهورة، لا تعبر عن الحرمان الجنسي الفعلي فقط، بل هي وسيلة للتعبير عن الحرمان الوجودي . قسوة الحبيب وتجاهله ليسا سوى الرمز لقسوة الحياة ووطأتها.

ويتأزم الأمر نظرا لتحالف قسوة الطبيعة مع استبداد المتسلط واقعية. هذا التحالف يثير تحالفا مقابلا له في اللاوعي : تحالف الأم النابذة مع الأب القاسي ضد الطفل العاجز. وهو في البداية لا يجد من وسيلة سوى الرضوخ إزاء هذا الوجود.

وهكذا فمأساة الإنسان المقهور لا تقتصر على بعدها الاجتماعي الاقتصادي السياسي فقط. إنها تفجر مأساة ثانية أكثر بدائية، هي القلق الطفلي اللاواعي : انعدام مشاعر القدرة والإحساس بالأمن، قلق الخصاء وقلق الهجر. ليس المصير المادي هو الذي يفلت من يده فحسب، بل تفجير القلق النابع من اللاوعي.

القسم الثاني: الأساليب الدفاعية

تمهيد

وضعية الإنسان المتخلف بما تتصف به من قهر ورضوخ مأزقية، تخل بالتوازن الوجودي، وتجعل الحياة غير ممكنة دون حلول. هذه الوضعية بما تتضمنه من اعتباط وقهر تمس القيمة الحميمة للإنسان المتخلف، قيمته في نظر نفسه وفي نظر الآخرين. ينتج عن اختلال التوازن الوجودي وانعدام تحقيق الذات، حالة مفرطة من التوتر والقلق وانعدام الاعتبار الذاتي. وتبرز الحاجة ماسة إلى حلول لمجابهة هذه الوضعية المأزقية.
يمكن أن نقسم هذه الحلول إلى فئتين أساسيتين: الفئة الأولى والأكثر فعالية هي محاولات تغيير الوضعية المأزقية من خلال محاولة تغيير الأوضاع الخارجية بشكل يتلاءم مع الحاجات الحيوية والأهداف الوجودية وتحقيق الذات. هذه الحلول هي الأضمن على المدى البعيد، وهي وحدها التي تكفل إعادة الاعتبار إلى إنسانية الإنسان المقهور. ولكنها ليست ممكنة دومة. ولذلك تسبقها من حيث التسلسل التاريخي فئة الحلول الدفاعية. وهي على عكس السابقة، لا تحاول التغيير ولا تقوى عليه، بل تهدف إلى التأقلم والتلاؤم مع الوضعية الراهنة بشكل يخفف من وطأته.
ولكن هذه الحلول الدفاعية، بما تتصف به من سلبية وفتور أساسا، لا تلبي الحاجات الحيوية على المدى الطويل. ولهذا فهي ملغومة من الداخل، من خلال قصورها عن التغيير. ولا بد أن يعود التوتر إلى الارتفاع، والتوازن إلى الاختلال بعد فترة تطول أو تقصر، مما يدفع الإنسان المقهور في النهاية إلى الحلول التغييرية.

نكتفي بالحديث عن أربعة أساليب أساسية تنتظم في أزواج متناقضة:
١- الزوج الأول يسير على محور التقرب من المتسلط والتماهي به من ناحية، والابتعاد عنه والذوبان في الجماعة من ناحية ثانية.
٢- الزوج الثاني يسير على محور القتال والعنف ومجابهة المتسلط من ناحية، والهروب المستسلم في الحلول الفاترة السحرية والاتكالية والخرافية من ناحية ثانية.
وهنا يسود التذبذب في التوجه نحو أحد المتناقضين. في الزوج الثاني مثلا، بمقدار ما تنشط عمليات التصدي، تخف حدة الحلول الاستسلامية. وبمقدار ما يسد السبيل أمام مجابهة المتسلط، تطغى حلول الاستسلام للخرافة والاتكال والتمني السحري. إلا أن كلا الأمرين يتداخلان ويتلازمان فترة طويلة من الزمن.

الفصل الخامس: الانكفاء على الذات

الحركة الأولى التي يحاول الإنسان المقهور من خلالها تجنب ما تفرضه عليه الطبيعة من بلاء اعتباطي، ويفرضه عليه المتسلط من قهر متعنت، تأخذ اتجاه الانكفاء على الذات. وهي كأوالية دفاعية تسير في اتجاه التقوقع والانسحاب بدل مجابهة التحديات الراهنة والمستقبلية . ويصحب ذلك إحساس داخلي بالعجز وقلة الحيلة.
يجد الإنسان المقهور من طموحاته إذا، وذلك بأن يتقبل مصيره، أو يحاول إيهام ذاته بتقبل هذا المصير. ويغرق في بؤسه الذي يتخذ عندها طابع القدر والنصيب.
إلا أن هذه الحالة تمثل رد الفعل الأقصى، ولا يصل إليها إلا القلة القليلة من الناس. أما غالبيتهم فتدافع عن نفسها إزاء تحديات الطبيعة والمتسلط التي لا قبل لها بمجابهتها، من خلال الانكفاء على الذات . وهو يضم حركتين متممتين لبعضهما البعض.
في الحركة الأولى يدير الإنسان المقهور ظهره للمتسلط. يبتعد عنه ويقطع الصلة به . يغذي مشاعر عداء باطنية تجاهه تعزز ميله إلى تجنبه وتجنب رموزه وأدواته. كي لا يتعرض للأذى، لا يتجنب العلاقة المباشرة فحسب، بل يتهرب من المشاركة في كل ما هو عام.
ولا يقتصر الأمر على التجنب والحذر، بل يتعداهما كي يأخذ شكل الرفض النشط لقيمه ورموزه وأدواته وأسلوب حياته. رفض يقوم على أساس من الاختلاف الجذري بين عالمين متعارضين ومتناقضين، ويشكل الحركة الثانية التي تتمم الأولى.
أما وسيلة الحماية الثالثة التي تشيع في موقع الانكفاء على الذات، فهي السلوك الاتكالي تجاه الولي (الملاذ) أو الزعيم المنقذ. من خلال هذه الوسائل التمسك بالتقليد والماضي المجيد، الذوبان في الجماعة، وعلاقة الاتكال يتمكن الإنسان المقهور، خلال مرحلة الرضوخ، من إدخال شيء من التوازن إلى وجوده، بإبعاد شبح القلق الذي يلفه والاحتماء من التهديدات المتنوعة التي تزرع مسيرة حياته.

أولا: التمسك بالتقليد والرجوع إلى الماضي المجيد (السلفية)

الإنسان المتخلف كالمجتمع المتخلف سلفي أساسا. يتوجه نحو الماضي ويتمسك بالتقاليد والأعراف بدل التصدي للحاضر والتطلع إلى المستقبل. تشيع السلفية بشقيها (الرضوخ للتقاليد والأعراف، والاحتماء بالماضي وأمجاده)، من الناحية النفسية، بمقدار درجة القهر التي تمارس على إنسان العالم المتخلف، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة على أمره إزاء غوائل الطبيعة وعنت المتسلطين.
ويشجع المتسلط الداخلي السلفية تشجيعا مستمرا لانتشارها وتعزيزا لمكانتها. لأنها تكرس امتيازاته وتعطيها صبغة القانون الطبيعي الذي يحكم الحياة وبالتالي لا يجوز المساس به من ناحية (التمسك بالتقاليد)، وهي تصرف الإنسان المقهور عن النهوض بواجب التغيير وتقديم التضحيات التي يستلزمها من ناحية ثانية (الاحتماء بأمجاد الماضي).

١- التمسك بالتقليد

المجتمع المتخلف، مجتمع تقليدي جامد، متوجه نحو الماضي، يضع العرف كقاعدة للسلوك وكمعيار للنظرة إلى الأمور. والإنسان المتخلف كائن تتحكم به التقاليد وتقيد كل حركة أو انطلاقة نحو المستقبل لديه.
ويتوسل المجتمع، وخصوصا الفئة ذات الامتياز فيه، وسائل قمعية لتعزيز التقاليد وفرض الجمود على حركة الفرد وبنية الجماعة. تجعل من القهر والاستعباد جزء من الطبيعة والضعة والفقر قسمة طبيعية للأرزاق والمقامات لا يجوز مقومتها.
ويتوسل المتسلطون الدين، من أجل ترسيخ العرف الشائع الذي يخدم مصالحهم قبل كل شيء. ويعززون سطوة التقاليد من خلال آيات وأحاديث مقتطعين الجوانب التي تؤكد سلطتهم.
وهكذا يصبح كل ما هو عصري يساعد الإنسان على تحرير ذاته وامتلاك زمام مصيره بدعة، وكل توكيد على الحق والعدالة والكرامة وممارستها زندقة. ويتحول الدين إلى سلاح مسلط على المغبونين.
الأوجه الدفاعية للتمسك بالتقاليد عديدة ومتنوعة. أبرزها التحصن بتلك التقاليد المجابهة غزو متسلط خارجي. هذا المتسلط يشكل تهديدا كيانية لمن يغزوهم في هويتهم القومية وتراثهم وانتماءاتهم ونظرتهم إلى الوجود، إنه يحمل خطر الاندثار وفقدان الاعتبار الذاتي. أما على المستوى الفردي، فهي تؤمن نوعا من الاستقرار الحياتي، فتعطي الإنسان شيئا من الطمأنينة الوضع الراهن، كما أنها تؤمن الحماية الذاتية. وهي تبعد عن الإنسان المقهور خطر مجابهة قلق المجهول، وقلق التغيير.
التمسك بالتقاليد يشكل أيضا أوالية دفاعية ضد قلق مجابهة المسؤولية الذاتية .فهي تتضمن تبريرا للعجز الذاتي عند الإنسان المقهور. ليس الذنب ذنبه، بل هو نظام الحياة الذي قسم له دوره وحدد له مكانته.
وتصل الوظيفة الدفاعية للتمسك بالتقاليد أوج فعاليتها بما تتضمنه من استلاب عقائدي يتعرض له الإنسان المقهور. فالتمسك بالتقاليد واحترام الأعراف ومراعاة العادات، يعاش كمصدر للاعتبار الذاتي، نظرا لما يتضمنه من قبول اجتماعي.

كل ذلك يجعل الإنسان المقهور يتمسك بالتقاليد بشكل متزمت، يتخذ أحيانة طابعة قهرية مرضية. وهو في ذلك يقف ضد الحقيقة في تغيير علاقة القهر وتطوير بنى المجتمع وما يعتورها من جمود. فيتحول، من خلال تمسكه الدفاعي هذا بالتقاليد، إلى أداة تخدم مصلحة المتسلط.

٢- الرجوع إلى الماضي المجيد

النكوص إلى الماضي والاحتماء بأمجاده وأيامه السعيدة، أوالية شائعة في حالات الفشل. فالطفل الذي يعاني من آلام الحاضر نتيجة أحداث غيرت مكانته وقيمته في نظر نفسه، يعود إلى أيام كان صغيرا يحظى بالحب، والحنان، والرعاية، والرضى. والشيخ الهرم الذي لم يعد حاضرا ولم يبق له أمل في الغد يهرب بأن يستعيد ذكريات الشباب وأمجاده . والفشل على كل صعيد حياتي بشكل يمس القيمة الذاتية والاعتبار الذاتي يدفع بصاحبه أحيانا، إذا أوصدت أمامه أبواب المستقبل، إلى الاحتماء بماضيه، وخصوصا بتلك الفترة الأكثر إشراقا فيه.
في هذا النكوص تحدث عملية تزيين الماضي، من خلال طمس عثراته من جانب، والمبالغة في تضخيم حسناته من جانب آخر. ولكن اختزال قيمة الإنسان والزمان إلى ما كان، إذا لم تكن عملية مرضية صريحة (الثبات على الماضي بمثابة إدارة الظهر للوجود)، لا بد أن تتضمن في ثناياها أملا ما في القفز عن آلام الحاضر، ووصل المستقبل بأمجاد الماضي، أو استعادة هذه الأمجاد في مستقبل قريب أو بعيد. بذلك وحده يحتفظ الإنسان بقدرته على مجابهة الحاضر الذي يشكل تحديات لا قبل له بها، يستمر في العيش بحد أدنى من التوازن.

البطل الأسطوري في القصص الشعبي، حياته عبارة عن سلسلة من الأزمات، وحلقات متصلة من الخطوب. لا يخرج من أزمة حتى يقع في التي تليها، ولا ينتصر على خطب حتى يقع في مأساة جديدة . حياته ملحمة دائمة من الثبات أمام أقسى اختبارات الحياة، وهو بذلك إسقاط لأمل الإنسان المقهور في الخلاص، لرغبته الدفينة في امتلاك القدرة على مجابهة قدره.
بالطبع يشجع المتسلط كثيرة انتشار هذه الحلقات، ففيها هروب من الواقع وعيش في الخيال يبعد الإنسان المقهور عن الوعي بما يلحق به من غبن، وما يجب عليه من النهوض إلى المجابهة من أجل التغيير.

ثانيا: الذوبان في الجماعة والعلاقات الدمجية

التعاطف والتعاضد بين أعضاء الجماعة، من الأواليات الدفاعية الفعالة ضد الأخطار الخارجية وأخطار الطبيعة. يستعيض الإنسان المقهور عن عجزه الفردي بالاحتماء بالجماعة. وبقدر تفاقم الخطر الخارجي، وبقدر تعاظم الإحساس بالتهديد للذات والمصير، يميل الإنسان إلى الذوبان في الجماعة.

١- الذوبان في الجماعة

الجماعات المغلقة وليدة الإحساس بالتهديد الخارجي، أكان مصدره بشرية أم طبيعية. ينقسم العالم في هذه الحالة إلى عالمين متناقضين تماما : الخارج والداخل. أما الخارج فهو العدو ومصدر الخطر والشر، العلاقة معه عدائية اضطهادية، والموقف منه إما انسحابي تجنبي أو تهجمي تدميري. أما الداخل فهو الخير كله، وهو مصدر الأمن والشعور بالانتماء، مصدر الهوية الذاتية، وهو بالتالي المرجع والملاذ. في هذه الجماعات كل واحد من أفرادها يتحول إلى مرآة تعكس للآخرين ذواتهم الإيجابية . ويحدث هنا إفراط في إعطاء القيمة للجماعة الداخلية على حساب الإفراط في تبخيس الجماعات الخارجية. وتشتد الأواصر ضمن الجماعة المغلقة بقدر حاجتها لتجنب قلق الانفصال. وبمقدار انغلاق الجماعة، ترتفع درجة النرجسية ضمنها وبين أفرادها، نظرة
لأن كلا منهم يكون مرآة ذات الآخر. وبارتفاع النرجسية تتضخم قيمة الجماعة، حتى تصبح القيمة المطلقة أو الوحيدة، وتتضخم معها وبالدرجة نفسها قيمة الفرد.

٢- الأسرة العشائرية

الجماعة المغلقة هي في الأصل عشيرة، أو ذات طابع عشائري. وهذه تتكون من أسرة عريضة، تتماسك فروعها بشكل وثيق.
من الناحية العلائقية النفسية، الأسرة العريضة تملكية أساسا. وأهم العلاقات ضمنها من نوع الحب التملكي. وتشكل الأسرة العريضة بذلك أكبر العقبات إزاء التطوير الاجتماعي. فهي تنازع المجتمع على ملكية أبنائها، وتحدد هويتهم.
لا تقاوم الأسرة الكبيرة الميول الاستقلالية فقط، بل هي تقاوم الفردية ضمنها. كل ميل إلى الفردية، إلى الذاتية، والعالم الحميم، يفسر كتهديد لتماسك الأسرة وكخروج عن سطوتها. هذه الأسرة رغم ما تشكله من عقبات أمام التغيير، ورغم ما تضمه أحشاؤها من تناقضات قابلة للانفجار، تلعب على المستوى الفردي وظائف نفسية مهمة. فهي تساعد العناصر الضعيفة، والأكثر عجزا عن التصدي للأخطار الخارجية (الطبيعية والإنسانية)، والأكثر فشلا في تحقيق أصالة ذاتية من خلال الإنجازات، على مجابهة واقعها، والتعويض عن مشاعر انعدام الأمن من ناحية، والهوان الذاتي من ناحية ثانية.
والأسرة هي الملجأ والملاذ، وهي الضمانة ضد الأخطار الخارجية. إنها تأمين للإنسان المهدد في صحته وسمعته ورزقه وغده. والأسرة ضمانة من كوارث الطبيعة وحماية من أخطار العدوان الخارجي من خلال كثرة العدد. ولذلك يحتل التكاثر والتناسل أهمية مفرطة في العالم المتخلف.

إن الوظائف النفسية للأسرة - العشيرة، مضافة إلى ضغوطها التملكية على أفرادها، تشكل عقبات جدية في وجه التغيير الاجتماعي. ولا بد من أخذها بعين الاعتبار حين وضع خطط التنمية.

٣- النشاط الفموي

الطعام والدعوة إليه والمشاركة فيه، كالهدايا وتبادلها، وسيلة للتواصل والتفاعل بين الناس. المشاركة فيه إلغاء للعدوانية وإبعاد لخطر التهديد الذي قد يأتينا من الآخر، كذلك حال الدعوة إليه. وهو يشكل لغة دون لفظية غنية جدا في قدرتها على إثارة التفاعل بين الناس . أما

من الناحية النفسية فالطعام من أكثر النشاطات ارتباطا بالحب، نظرا لارتباط النشاط الفم أثناء الرضاعة بالعلاقة الوثيقة مع الأم. الحب والحليب يمتزجان ويتبادلان الدلالة.
إلا أن الطعام يأخذ في البلدان النامية قيمة مبالغة فيها، بالنسبة لبقية أشكال النشاط الإنساني. ويحتل الكرم مكانة مرموقة لا نجد لها نظيرا في البلدان الصناعية. ومع الوضع في الاعتبار الجوع وسوء التغذية يمكننا تفسير المبالغة في أهمية الطعام. يحتل الطعام عن الميسورين أيضا قيمة الدلالة على الوجاهة الاجتماعية والبحبوحة اللتين فيهما ينعمون.
أما على المستوى اللاواعي، فتأخذ هذه الظروف طابع الدفاع ضد قلق بدائي جدا يعاني منه إنسان العالم الثالث عموما، وهو قلق الهجر وقلق الخواء.
والطعام وسيلة ممتازة لتدعيم العلاقات التملكية داخل الأسرة. فالأم، أداة الحب التملكي، تمتلك الزوج والأبناء من خلال امتلاك قنواتهم الهضمية. والانخراط المستسلم في العملية هو استسلام للعلاقة الدمجية في الأسرة. والطعام مع الشراب هما التعويض الوحيد عن الإحباطات المتنوعة العاطفية والجنسية. ويليها إحباط التعبير عن الذاتفي ظل نظام القهر والتسلط الذي يكبح الحريات ويخنق التعبير اللفظي والحركي والسلوكي. ثم هناك الإحباط الوجودي العام، انحسار الاهتمامات، انحسار إمكانات تنمية الشخصية وإثراء الحياة. هذه الإحباطات جميعا تؤدي بالإنسان إلى النكوص، إلى نشاط فمي ذي طابع طفلي أساسا. والنكوص إلى المستوى الفم يرتبط مباشرة ويقود رأسا إلى استمرار الوضعية الاتكالية على الأسرة، ثم الرؤساء وكل من يملكون زمام السلطة المادية والمعنوية.

ثالثا: الوضعية الاتكالية

الإنسان المقهور الذي لم يتمكن من التصدي لقدره ومجابهة تحدياته يلوذ تحميه بقوى مما يجعله اتكاليا بدرجة كبيرة ومثال ذلك علاقته بالزعيم. العلاقة مع الزعيم المنقذ هوامية، لأنها ليست علاقة مع إنسان فعلي له قدراته، وطاقاته، وحدوده، وعيوبه. إنها من نوع التماهي الإسقاطي، بمعنى أن الإنسان المقهور يسبغ على شخص الزعيم كل تصوراته الطفلية بالقوة والقدرة وكل مثله العليا، ويجعل منه باختصار الصورة النقيض تماما لصورته عن نفسه والتي يجهد في الهروب منها لأنها نموذج النقص والمهانة.
الخطر الذي يقع فيه العالم المتخلف، هو تحول الزعيم المنقذ من قائد يحرك الجماهير، إلى بطل أسطوري ينخرط في وهم التغيير الفردي، ويدفع أتباعه إلى مواقع الإعجاب والتفرج والتأييد الطفلي (فارس يحارب جيشه، والقبيلة تتفرج منتظرة عودة فارسها مظفر).
هذه الوضعية مأزقية بالضرورة لكل من الزعيم والجماعة على حد سواء. فالزعيم لا بد أن يفشل، ويتكرر فشله ويتراكم عجزه مفجرة التناقضات بينه وبين جمهوره. فإذا أصر على بقائه في سدة الزعامة وأصر على نهجه رغم فشله، فإنه سيتحول إلى متسلط، ولا بد له من اتخاذ القمع وسيلة للاحتفاظ بمركزه. ويكون بذلك قد عاد بالأمور إلى حالتها الأولى : مجتمع التخلف الذي يحكمه القهر والتسلط .
أما الجماعة فبعد الشك ستكفر وتستقر في خيبة أملها. وقد تكرر خطأها في أمل سحري بخلاص جديد، إلا إذا قيض لها أن تعي دورها كعامل التغيير الأساسي: الخلاص من خلال الجهد الذاتي .

الفصل السادس: التماهي بالمتسلط

التماهي بالمتسلط يميز سعي الإنسان المقهور لحل مأزقه الوجودي والتخفف من انعدام الشعور بالأمن، والتبخيس الذاتي. إنه كحل عبارة عن هروب من الذات وتنكر لها، وهروب من الجماعة وتنكر للانتماء إليها، من خلال التشبه بالمتسلط وتمثل عدوانيته وطغيانه ونمط حياته وقيمه المعيشية . إنه استلاب كلي للإنسان المقهور الذي يهرب من عالمه كي يذوب في عالم المتسلط ونظامه آملا في الخلاص.
تطغى ظاهرة التماهي بالمعتدي خصوصا في مرحلة الرضوخ للمتسلط. وهي تشكل على ذلك الوجه المضاد لعملية مقاومة المتسلط من خلال الانكفاء على الذات، والاحتماء بالجماعة، بمعاييرها وتراثها. ومن الضروري تحديد أمرين اثنين هما في أساس التسمية التي أطلقناها: التماهي، والتماهي بالمعتدي.
التماهي، ويسمى أيضا التوحد والتعيين، هو أكثر من مجرد التشبه بالآخر أو محاكاته. فهاتان العمليتان تظلان واعيتين. أما التماهي، أو التعيين، فهو عملية لا واعية تتم خارج إطار الانتباه والإرادة في معظم الأحيان، وتتلخص بتمثل وجود الآخر حتى يصبح الشخص هو الآخر أو يعيش ذاته كذلك. إنه بناء الذات على نسق وجه من أوجه وجود الآخر الذي نتماهى به.
من الناحية النفسية اللاواعية لا يحدث التماهي بشكل فاتر، من خلال تمثل خصائص الآخر كما هي موضوعية، بل هو عملية نشطة جدة تمر بسلسلة من تفاعل أواليتي الاجتياف والإسقاط اللتين تتبادلان التأثير. فما يتمثل من خصائص الآخر يمر بمصفاة الذاتية ويصطبغ بلونها، تبعا للدينامية اللاواعية للشخصية. أكثر من ذلك، نحن نجتاف في النهاية الصورة أو التصور) أو الدلالة التي أسقطناها على الآخر.

أما التماهي بالمعتدي ، فهو طبقا لآنا فرويد إحدى أقوى وسائل النضال ضد الموضوعات الخارجية المولدة للقلق. فالشخص الذي يواجه بخطر خارجي (متمثل نموذجية بنقد أو تهديد صادر عن سلطة) يتماهي بالمعتدي، بمن يمثل أو يجسد هذه السلطة مصدر الخطر، إما بأن يأخذ لحسابه العدوان كما هو، أو بالمحاكاة الفيزيقية ،أو المعنوية الشخص المعتدي، أو بتبني بعض رموز القوة التي تدل عليه. إلا أن هذه الأوالية تشيع كثيرة عند الأطفال كوسيلة للتغلب على خوفهم من الأخطار الخارجية. فالطفل الذي يخاف الأشباح في الظلام، قد يتغلب على خوفه من خلال لعب دور الشبح الذي يخيف طفلا آخر يسقط عليه دور الضحية التي تخاف . ومع الوقت تتحول الضحية إلى معتد من خلال نقل دور الضحية أو وضعيتها إلى شخص آخر يفرض عليه الدور المزعج، ويصبح موضوعة للتشفي من ناحية، وللتنكر من المخاوف الذاتية من ناحية ثانية. ويأخذ التماهي بالمعتدي ثلاثة أشكال: التماهي بحركات المعتدي، والتماهي بعدوان المعتدي والتماهي بأدوات المعتدي.

التماهي بالمتسلط

١- التماهي بأحكام المتسلط

يقوم الإنسان المقهور، في عملية التماهي بأحكام المتسلط، بتبني عدوانيته وتوجيهها إلى الذات على شكل مشاعر ذنب ودونية وتبخيس للقيمة الذاتية .
تشيع أوالية التماهي بأحكام المتسلط خلال مرحلة الرضوخ وتجعل التسلط ممكنا، بل يكاد يبدو طبيعية. تبدو الهوة ساحقة بين المتسلط والإنسان المقهور. وبالتالي فمن حق الأول أن يسود نظرا لتفوقه. يعاني الإنسان في هذه الحالة من مازم وجودي حاد يتخذ شكل رفض الذات وعدم الاعتراف بها، بل إدانتها على فشلها. وينطلق المرء في مجموعة أحكام سلبية ، تجعله لا يرى خيرة أو عزة في ذاته . إنها مصدر التقصير. وهو لا يحترم أمثاله ويكاد يخجل من الاعتراف بالانتماء إليهم. وانطلاقا من هذه الوضعية، ينخرط في حرب شعواء على الجماعة. إنها الجماعة المستكينة التي لا يرجى منها خير، والتي ستظل أبدا غارقة في المهانة والجهل والانحطاط. وبذلك يكون قد ابتدأ تدريجيا في السير على طريق التماهي بعدوان المتسلط، وتهيأ للعب دوره تجاه الأشخاص الأضعف حين تسنح الفرصة.

يستغل المتسلط هذه الظاهرة ويعمل على تغذيتها وترسيخها بكل السبل الممكنة. فهو يؤكد على ضعف وجهل وتأخر ومهانة الإنسان المقهور، ويغرس هذه الصورة في نفسه غرسة من خلال عملية تبخيس دائبة تحاصر ذلك الإنسان من كل الجوانب. وعندما تترسخ هذه العملية وتتسع الهوة بين المتسلط وضحيته، يتحول هذا الأخير إلى حليف غير مباشر للأول، في حرب التبخيس هذه التي يقع ضحية لها. وعند هذا الحد ينقاد هذا الإنسان المقهور إلى عملية استلابه: يتنكر لذاته ويحارب مصالحه.

٢- التماهي بعدوان المتسلط

يتخلص الإنسان المقهور من مأزقه من خلال قلب الأدوار . يلعب دور القوي المعتدي ويسقط مل ضعفه وعجزه على الضحايا الاضعف منه. ومن خلال التماهي بالمعتدي يستعيد الإنسان المقهور بعض اعتباره الذاتي، أو بالأصح وهم الاعتبار الذاتي. في ذلك التعالي يحاول أن ينكر مهانته الذاتية بصبها على الآخر. ومن مظاهرها أيضا كل التصرفات الاستعراضية للقوة، أو الرموز القوة أو حتى لوهم القوة، سواء من خلال حمل السلاح واستعراضه دونما حاجة فعلية إليه، أو من خلال استعراض العضلات.
إنه في الحقيقة يتبنى قسوة المتسلط لحسابه فارضة إياها على الأضعف منه. كما أنه يتبنى أسلوب حياة المتسلط في العيش الطفيلي على حساب الناس الكادحين. يزدري العمل، ويزدري العناء الحياتي الذي يضعه أمام مهانته الوجودية وانسحاقه العلائقي. ومثال ذلك على مستوى الإدارة، نجد الموظف يتعالى على من هم دونه ويشتط في معاملتهم، كما يتعالى على الجمهور ويقابله بالصد أحيانا والنبذ الصريح أحيانا أخرى. وهو إن قام بما يفترض أن يقدمه من خدمات يعتبر ذلك منه من جانبه تجاه صاحب الحاجة، وليس واجبا تمليه عليه وظيفته.
أما على مستوى ممارسة السلطة (الشرطة والأمن وخلافهما) فيتخذ التماهي بالمعتدي أفصح صوره. هناك سلسلة متصلة الحلقات من تراتب الرضوخ والتسلط، ومن مظاهر البطش، تمارس على العناصر الأضعف. أزلام الإقطاعي أشد قسوة وأكثر بطشا منه تجاه الفئة التي ينتمون إليها في الأصل والتي تنكروا لها كل التنكر بعد أن حظوا بالتقرب منه، وسنحت لهم الفرصة كي يلعبوا دور أدواته القامعة .

إن العنف والقسوة اللذين تمارسهما أدوات السلطة حين ملاحقة بعض المخالفين في أمور صغيرة أو كبيرة، ناهيك عن إهانة كرامة المواطن والنيل منه، وناهيك عن التلذذ في عمليات التعذيب والإيذاء الجسدي أثناء التحقيق، أمور لا تمت بصلة إلى ما تفترضه القوانين من علاقات وأساليب تعامل. إن أداة السلطة في المجتمع المتخلف تمارس البطش، من خلال التماهي بالمتسلط، بقدر ما تعرضت وتتعرض له من قهر . وهي في هذه الممارسة تعبير فصيح عما يعتمل في بنية ذلك المجتمع من قهر وعسف.

٣- التماهي بقيم المتسلط وأسلوبه في الحياة

يصل الأسلوب في هذه الحالة أخطر درجاته، لأنه يتم بدون عنف ظاهر، بل على العكس، من خلال رغبة الإنسان المقهور في الذوبان في عالم المتسلط، بالتقرب من أسلوبه الحياتي وتبني قيمه ومثله العليا. وهو يرى في ذاك التقرب وهذا التبني حلا لمأزقه الوجودي.
والواقع أن الإنسان المقهور، في هذا النوع من التماهي، هو ضحية عملية غسل دماغ مزمنة يقوم بها المتسلط.فهو يشن حربا نفسية منظمة لتحطيم القيم الاجتماعية والحضارية للفئة المقهورة، وتزين لها قيم المتسلط، أسلوب حياته ، أدواته، تقنياته كطريقة وحيدة ذات اعتبار في الحياة، وفي تحقيق الذات . هذه الحملة المنظمة تحاصر الإنسان المقهور من كل جانب، في وسائل الإعلام، في الدعاية (كل الدعاية الحديثة تقوم على الإغراء بتقليد وجاهة الأجنبي أو ذوي الحظوة والنفوذ) وفي التعليم المدرسي.
يقود التماهي بأسلوب المتسلط الحياتي، وكذلك السعي اللاهث وراء رموز الوجاهة المرتبطة بهذا الأسلوب، إلى ترسيخ تمثل واعتناق قيم المتسلط الحياتية ونظرته إلى الوجود ومثله العليا. وهكذا نجد الإنسان المتخلف المقهور يؤمن أشد الإيمان بما يتناقض مع مصلحته. ومن خلال عملية تشريط مستمرة، يتماهي الإنسان المقهور بقيم المتسلط ويتجنب قيمه الخاصة مع أن مصلحته هي، على العكس تماما. تكمن في الخلاص الجماعي من خلال المجابهة . إن التماهي بقيم الامتثال يشكل عقبة كأداء في وجه التغير الاجتماعي الحقيقي، وبالتالي في وجه الخلاص من التخلف.

الفصل السابع: السيطرة الخرافية على المصير

لا يستطيع الإنسان أن يتحمل وضعية القهر والعجز ببساطة. لا بد له في كل الحالات من الوصول إلى حل ما يستوعب مأساته، ويقيض له شيئا من السيطرة عليها، وإلا أصبحت الحياة مستحيلة. فإذا لم تتيسر له الحلول الناجعة التي تمكنه من التحكم الفعلي بالواقع على مستوى ما، لجأ إلى الحلول الخرافية والسحرية.
تتلاعب الممارسات السحرية الخرافية والشعوذات بأمل الإنسان في الخلاص وتحرك خوفه من الحاضر وقلقه على المستقبل. وتستخدم هذه الأساليب كأداة للارتزاق من قبل المشعوذين الذين يدعون العلم بها، والقدرة على تغير أحوال الإنسان، ومساعدته على التحكم بمصيره، تتحول هذه الممارسات إلى تجارة رائجة تنتشر في أوساط البسطاء من الناس، تسلبهم القليل الذي يمكن أن يملكوه، على أمل الخلاص مما يحل بهم من أرزاء الحياة. ويتحالف المشعوذون مع التجار وأصحاب السلطان على الإنسان المقهور، لتحقيق مآربهم المشتركة لقاء ما يعللون به نفسه من أوهام الخلاص ودرء الشر أو الخطر وتغير المصير. من خلال هذا التحالف وذاك التشجيع، تتأصل السيطرة الخرافية على المصير في نفسية الإنسان المتخلف، كي تبلغ مرتبة الإيمان الذي لا يتزعزع. ويمكن التمييز بين ثلاث فئات رئيسية: فئة أولى تهدف إلى السيطرة على الحاضر، وفئة ثانية تهدف إلى السيطرة على المستقبل، وفئة ثالثة مشتركة بينهما.

اولا: السيطرة على الحاضر

يتعلق الإنسان المقهور للسيطرة الخرافية على حاضره ببعض رموز الخير، ويخشى بعض رموز الشر والتهديد الوجودي. أما رموز الخير فهي الأولياء وكراماتهم وأضرحتهم، وأما رموز الشر فهي الجن والعفاريت والشيطان. وأما التقرب من الأولى فيتم من خلال الأدعية والنذور والقرابين. وأما تجنب الثانية فيتحقق من خلال السحر، والكتابة، والتعاويذ، والرقي.
وهكذا يضع الإنسان المقهور أمله في الصور الخيرة ورموزها الخرافية. كما يسقط مخاوفه وعجزه ومشاعر ذنبه الناتجة عن فشله الوجودي على أعداء خرافيين بدورهم.

١- الأولياء ومقاماتهم وكراماتهم

تنتشر ظاهرة التعلق بالأولياء واللجوء إليهم لاستجلاب الخير ودرء الشر، بكثرة في القطاعات المقهورة من السكان. وتتفشي خصوصا، حيث يعم الجهل والعجز وقلة الحيلة ، وحيث يتعرض الإنسان لأقصى درجات الاعتباط من الطبيعة، يأتيه كتهديد لقوته وصحته وولده، ومن الإنسان يصيبه قمع وتسلط واستغلال.
تعترف الجماهير إجمالا بحدوث ظواهر خارقة وكرامات على أيدي هؤلاء الأولياء، هذه الكرامات تشكل النقيض تماما لوضعية الإنسان المهان واقعية . وهي تجسد أماني الجماهير المغلوبة على أمرها في أمل الخلاص من خلال وجود نموذج الجبروت الطفلي هذا. تحدث الكرامات إجمالا لأناس اصطفتهم العناية الإلهية دون أن يكون لهم في ذلك فضل أو إرادة (دون جهد أو تدريب وإعداد وإرادة كفاح).
تنتشر أضرحة الأولياء ومقاماتهم في كل أرجاء المجتمع المتخلف، ولا تكاد تخلو منه قرية، أو حي في المدن الكبرى. وتشكل هذه الأضرحة نواة التجمعات السكانية، ويقوم على هذه المقامات خدام، وعلماء (يدعون أنفسهم علماء) يسهرون عليها، ويلعبون دور الوساطة بين صاحب الحاجة وبين الولي ويقبلون عنه النذور والقرابين، ويوزعون الأدعية ويقودون الابتهالات.
ومن خلال هذه الصورة الخيرة للأولياء وكراماتهم وبركتهم والأدعية وغيرها من وسائل التقرب منهم، يملأ الإنسان المقهور خواء عالمه العاجز المحدد، بأمل القدرة على التصدي لواقعه والتحكم بمصيره، بمقدار ما يتخذ من هذه الرموز حلفاء له.

٢-الجن والعفاريت والشيطان

كلها كائنات خفية، لعبت دورا بارزا في السيطرة على خيال الجماهير المقهورة، وتعليلها للأحداث التي تفلت من سيطرتها والتي يستعصي عليها تفسيرها. كما أنها قد استخدمت، وما زالت، بكثرة لتبرير ما يود الإنسان التستر عليه من فضيحة، أو عيب، أو تقصير بزعم الوقوع تحت تأثير الجن، مما يساعده على الحفاظ على سمعته. وأبرز مثل على حالة التجسيد الذي ينفي المسؤولية الذاتية، كما يحفظ السمعة، حالة التلبس أو الخبطة التي تفسر من خلالها بعض الاضطرابات النفسية ذات الطابع الهستيري أو الصرعي. هذه التفسيرات تعلل وتوضح ما تعجز عنه هذه البيئات من تأويل نفساني اجتماعي علمي للاضطرابات النفسية والسلوكية.
أما الشيطان فهو أفصح مثال على إسقاط المعاناة الذاتية، والتنصل من المسؤولية المصيرية فهو رمز الغواية اللاواعية، وليس ذلك فحسب، بل يلعب الدور نفسه بالنسبة للوضعية الاجتماعية للإنسان. كل إغراء بالتمرد على المعايير القمعية يلصق بغواية الشيطان وتغريره بالإنسان. كل تقصير في النهوض لواجبات المصير الذاتي يلصق بتزيين شيطاني. كل عدوان على الآخرين أو نيل منهم يحمل وزره للشيطان وإفساده الأمر بين الناس. وبهذه الصورة ، تتحول الحياة بما فيها من أحداث إلى سلسلة مأساوية يقوم الشيطان بإخراجها، ويكون الإنسان مجرد ممثل فيها، دون أن يعرف، تحديدا، طبيعة الدور الذي يقوم به.

٣- العلاقات العدائية، الحسد والسحر

نلمس هنا شكلا آخر من أشكال التأويل الخرافي لأحداث الحياة ونوائبها، يعتمد على تفجر العلاقات الاضطهادية، التي تتغذى من العدوانية الكامنة عند الإنسان المقهور. تلك العدوانية عندما تتراكم تصرف إلى الخارج بإسقاطها على الغير، الذي تتهمه بأنه سبب المصيبة. يجد المحسود في الجسد تفسيرا لظواهر فجائية من نوع النكبات تلم به أو بذويه أو ممتلكاته . وتصيب بالضرر، أو تذهب بما يكون قد حظي به من خير أو جاه أو امتياز على الآخرين. وهو تفسير ينال الرضى عند المحسود إذ يسمح لعدوانيته أن تتفجر بدون رادع، متخذة طابع الدفاع عن النفس من شر الحاسد الذي حسد. والتفسير بالحسد يرضي المحسود لأنه يشعره بالامتياز عن الآخرين (إذا كان محسود، فلا بد أن يكون ذلك لتفوق أو فضل من جاه أو ولد) وبالتالي تشعره وهمية بارتفاع مكانته، بينما تسقط المهانة الذاتية على الحاسد.
اتخاذ الحسد كتفسير لما قد يحل بالمرء من غرم أو خسارة أو نكبة، في ماله وعياله أو مكانته، يجعل إمكانية الدفاع ضده ميسورة ووسائلها متوفرة ومعروفة. إنها الرقي والتعاويذ والسحر التي تشعره بسيطرته على مصيره وما يحدث.

ثانيا - السيطرة على المستقبل

لا يفوق معاناة الحاضر عند الإنسان المقهور سوى قلق المستقبل. فمقدار عجزه عن مجابهة حاضره، يفلت منه مصيره. لا بد إذا من وسائل للسيطرة على المصير والاحتياط للمستقبل. وهي وسائل خرافية بالضرورة.

١- التطير

أينما وجدت عناصر المصادفة والحظ كان احتمال القابلية للتطير كبيرة. ولذلك يأتي في مقدمة المتطيرين : المقامرون، والصيادون والمحاربون». ونضيف إليهم المقهورين الذين على مقدراتهم لا يسيطرون. في هذه الحالات يحس الإنسان بأنه معرض لاحتمالات متناقضة، الحظ والخير، أو النحس والشر، الأمن والمنعة، أو الخطر والنائبة. يأمل في الحصول على الأولى ويخشى وقوع الثانية، ويعيش في كلا الحالتين بين خفقة الرجاء وقلق الخطر. وحتى لا يستمر هكذا منتظرة الخطب كي يقع أو السعد كي يطلع، فإنه يحاول استباق الأمور والاحتياط لها ما أمكن.
وإذا كانت نزوة السيطرة تشكل القوة المحركة للسحر، فإن تجنب الأذى، أو الاطمئنان إلى المصير، يشكل أقوى دوافع التطير، وكلاهما وسائل خرافية للسيطرة على المصير . والتطير كالخواف، هو في النهاية إسقاط للقلق الداخلي على الخارج، واستقصاء علامات خارجية أو حسية ، أو تجنب ممارسات محددة للدفاع ضد تفصحات هذا القلق.

٢- تأويل الاحلام

الاختلاف بين التأويل الشعبي والتفسير النفسي الحديث جوهري. فإذا كانت الأحلام تنبئ عما سيصيب الإنسان من الخارج، في التأويل الشعبي، فإنها في التحليل النفسي تشير قطعة إلى ما يعتمل في النفس من رغبات ومخاوف، فالتفسير داخلي، ذاتي تماما ، إنه ينبئ عما يعتمل في أعماق اللاوعي وما يحاول أن يشق طريقه إلى الوعي والسلوك . التأويل الشعبي يميل إلى اعتبار الحلم دلالة تنبئ عما يخبئه المستقبل. فإذا حلم بأمر ما، فإن هذا الأمر سيقع مستقبلا. ولذلك تحمل الأحلام طابع البشير بفرج مقبل أو النذير بخطب وشر آتيين. أما في التأويل النفسي فإنه لا يحدث للمرء أمر ما لأنه رآه في الحلم، فالحلم من حيث تعريفه العلمي هو دوما تحقيق رغبة ، أو ممهد لتحقيق رغبة مهما كان مضمونه ، سارة أو مؤلمة، مخيفة أو محايدة، سواء كان واضحة جلية، أو مختلطة مشوشة. الحلم هو لغة اللاوعي الذي يعبر عن مكنوناته بواسطتها خلال النوم.

٣- قراءة الطالع والعرافة

قراءة الطالع وكشف البخت والتنجيم، وسائل يتوسلها الإنسان المقهور لتلافي عجزه وإدخال الطمأنينة إلى نفسه. وهي تنطلق إذا في تأثيرها من الحاجة إلى مجابهة قلق المجهول وما يتضمنه من تهديد مصيري. ويتلازم هذا الأمر مع استفحال القصور عن التحكم بالمصير.

ثالثا: القدرية

عندما يستفحل القهر، ويستشري الحرمان والجهل، ويفلت المصير كلية من السيطرة الذاتية ، كي يرتهن بقوى خارجية، يستجيب الإنسان بالقدرية. والقدرية كدفاع تبرز حين يصل عجز الإنسان مداه ، وتنعدم قدرته على توجيه الأحداث والتأثير في الظروف. وهي تضمن محاولة ذاتية للسيطرة على المصير من خلال القول إن هذه هي طبيعة الأمور. والقدرية قانون ينظم الاعتباط، من خلال ربطه بحكمة خفية تريد للإنسان أن يشقى، وأن يعاني أو أن يرزأ بماله، وذويه، وصحته، ومكانته. هذه الحكمة تتجاوز فهمه وتفوق استيعابه، ولا بد له من تقبلها كجزء من طبيعته كإنسان. وهنا تربط القدرية بالإيمان، مما يدخل بعض العزاء إلى النفس، والطمأنينة إلى أن القدر إن قسا مرة، فلا بد أن يأتي بعد ذلك فرج.
ويسير الأمر خطوات أبعد من ذلك حين تتحول القدرية إلى نوع من الواجب، ضرورة قبول الأرزاء كامتحان للإيمان، وبالتالي لا يجوز التمرد عليها. القدرية إذا، تجنب المرء الصراع العنيف الذي لا بد أن يعصف بنفسه، إذا ما وضع أمام مصيره، دون أن يتمكن من السيطرة عليه بطريقة ما.
تلك كلها وسائل للسيطرة على المصير حين يتفاقم القهر، ويستفحل عجز الإنسان، وتنعدم قدرته على التأثير في الأحداث. إنها دفاعات تساعد المرء على تحمل مصيره بالحد الأدنى من الصراع النفسي. ولكنها تشكل بالطبع عقبة جدية في وجه النهوض لتغيير المصير كحل وحيد فقال في نهاية الأمر. إنها تدفع بالمرء إلى الاستسلام، والاستكانة للأمر الواقع، وبالتالي تعزز هذا الواقع وتحافظ على استمراريته. ومن هنا تشجيع الحكام والمستفيدين منه على انتشار القدرية، فليس أفضل منها للحفاظ على امتيازاتهم.

الفصل الثامن: العنف

كل الآليات الدفاعية السابقة، لا تمكن الإنسان المقهور من حل مأزقه الوجودي بشكل ملائم يرد إليه توازنه النفسي. فهي في معظمها لا تتصدى للواقع، بل تتراوح ما بين الهروب منه (الانكفاء على الذات)، والهروب فيه (التماهي بالمتسلط)، والعيش في وهم السيطرة عليه (السيطرة الخرافية على المصير).

العنف يبقى الوسيلة الأخيرة في يد الإنسان للإفلات من مأزقه ومن خطر الاندثار الداخلي الذي يتضمنه هذا المأزق. والعنف هو السلاح الأخير لإعادة شيء من الاعتبار المفقود إلى الذات من خلال التصدي مباشرة. العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين. والعنف هو الوسيلة الأكثر شيوعا لتجنب العداونية التي تدين الذات الفاشلة بشدة، من خلال توجيه هذه العدوانية إلى الخارج. وهكذا فالعنف قد يكون عشوائيا مدمرا يذهب في كل اتجاه، أو يكون بناء يوظف في أغراض تغيير الواقع.

أولا: مظاهر العنف

العدوانية تنخر وجود الإنسان المقهور عموما. وتنخره أكثر فأكثر في العالم المتخلف . وهي عبء وتهديد للتوازن النفسي، ودافع للإقدام على العديد من تصرفات تدمير الذات . كما أنها، في الوقت نفسه، دفاع وانتفاضة ضد التهديدات التي تأتيه من الخارج.

تأخذ عدوانية الإنسان المتخلف مظهرة فاترة، أو نشطة (وتسمى عندها عنفا) وذلك تبعا للظروف التاريخية للمجتمع من ناحية، ولحالة كل فرد في لحظة ما من ناحية ثانية.

١- العنف المقنع

تفعل العدوانية هنا فعلها بشكل خفي، مقنع بمظهر من السكون والسكينة والاستكانة الخادعة، والعنف المقنع قد يرتد على الذات متخذا شكل السلوك الرضوخي، والميول التدميرية الذاتية، أو هو يتوجه إلى الخارج على شكل مقاومة سلبية.

١.١ - العدونية المرتدة إلى الذات

العدوانية المرتدة إلى الذات لا تجد طريقها إلى الخارج إلا بشكل باهت وهزيل ولذلك فهي ترتد إلى الذات، وتعنف بها وتقسو عليها وتنزل بها مختلف أشكال العنت وتسومها سوء العذاب. حيث يلوم الإنسان المقهور نفسه، ويشتط في تبخيسها والحط من شانها. إنه يحملها مسؤولية الفشل المصاحب لوضعية القهر، ويصل في ذلك حد التماهي بعدوان المتسلط الذي يغرس في ذهنه الدونية، والتخلف، والعجز، والجهل. وتصل الإدانة حد النكاية بالنفس، وبالآخرين المشابهين لنا، من خلال إعلاء شأن المتسلط، أو القوة التي فشلنا في مجابهتها.

تتضمن هذه الإدانة للذات دفاعا عنها بشكل خفي. فالإدانة الذاتية تظل أخف وطأة من إدانة الآخرين. وفي إدانة الذات والحط من شأنها نوع من التكفير عن الخطيئة الوجودية تجاه المصير، فهي تتضمن ولا شك، بشكل كامن، الأمل في الغفران.

وإدانة الذات تشكل في النهاية أسلوبة دفاعية من خلال تجميد الأمور وانعدام الإحساس بها، وبالتالي السيطرة على القلق المحض المصاحب لها. ذلك هو لب السوداوية كوسيلة دفاعية. هناك ذات مدانة محقرة ومعنفة دون هوادة، وذات أخرى تدينها، تحقرها وتشتط في سومها سوء العذاب . هذه الذات الأخرى ضمنية، بها يتماهي الإنسان المقهور، في حربه ضد ذاته المهانة التي يحاربها. إنه نوع من الاحتيال على واقع لا قبل للمرء بمجابهته، حتى يحتفظ بقيمة ضمنية لذاته الحميمة والحقيقية (في نظره). ليس هناك من مذنب، إلا وينبذ جزء من ذاته معتبرا إياه خارجا عن أصالتها ومسقطا عليه كل اللوم، وكل التبخيس، بغية الاحتفاظ بذاته الحقيقية (الخفية) دون مساس.

بذلك فحسب يستطيع أن يعيش، وإلا فليس أمامه سوى الانتحار، إذا لم يحتم بالازدواجية. حتى الانتحار، يتضمن في النهاية نوعا من الازدواجية : تدمير الذات بعد تحميلها كل الإثم، أملا في خلاص وهمي، في تطهير ذاته الحقيقية مما ألم بها من سوء ومهانة. ولكن مأساة المنتحر تكمن بالتحديد في أن تدمير الذات المدانة وصورتها السيئة يتم من خلال الجسد (وعاء الذات الوحيد) وبالتالي القضاء الفعلي على الوجود. أما في وهم المنتحر، فالأمر لا يعدو القدرة على الإقدام على فعل خطير وجذري من أجل الخلاص.

ومن أشكال ارتداد العدوانية نحو الذات ، كميل تدميري، المرض الجسمي. هو صب العدوانية الداخلية على الجسد، على شكل مرض جسمي، يتناسب مع شدة القهر والقمع اللذين يتعرض لهما الإنسان. ويعتمد ذلك كله على التهرب من المسؤولية، من ضرورة التصدي للمصير وأعبائه وتحدياته : أنا لست فاشلا، بل مريض.

٢.١ العدوانية الموجهة إلى الخارج

مرحلة الرضوخ للمتسلط لا تخلو من مظاهر عنف موجهة إليه، وإلى رموزه خصوصا، تأخذ شكل الحرب على نظامه وقيمه، وتحاول النيل منه بشكل خفي. أبرز هذه المظاهر الكسل. فالمتسلط المستغل يغرس فيه قيم الجهد والإنتاج، يحاول قولبته حتى يصبح أداة منتجة تخدم أغراضه. ويجابه الإنسان المقهور ذلك من خلال الكسل، فهو وسيلة ضد المتسغل المتسلط.

لا شك في أن للكسل أسباب أخرى مهمة. منها سوء التغذية واعتلال الصحة الناتج عنه وانخفاض القدرة على الجهد الدائم. ولكن يفوقها أهمية، اليأس الذي يستحكم في الإنسان المقهور من انعدام إمكانية الارتقاء بوضعه، وتحسين مصيره من خلال جهده الخاص.

بالإضافة إلى الكسل هناك عداونية أكثر صراحة وهي ظاهرة تخريب الممتلكات العامة التي تلاحظ في ظروف الفوران في المجتمع. يقبل المواطنون على تخريب وإتلاف التجهيزات العامة في الطرق (كسر إشارات الضوء، اقتلاع شجيرات الزينة، اقتلاع الحواجز على الأرصفة، إلخ..) مع أن الفائدة المباشرة منها تعود عليهم قبل غيرهم. إنهم في عملهم هذا يهاجمون رموز المتسلط، لإحساسهم بأن ما هو عام ليس ملكهم. فالمتخلف يحس بالغربة في بلده، عندما يخرب المرافق العامة فهو، أولا وقبل كل شيء، يعبر عن عداونيته تجاه المتسلط.

من أشكال العدوانية التي تشيع ضد المتسلط، وتتخذ شكل التعبير المقنع، العدوان اللفظي بالنكات والتشنيعات على اختلافها. هذه الحيل تصرف الحقد والعدوانية المتراكمة وتمنع انفجارها نحو الخارج، وهي تخفف من إمكانية توجهها نحو الداخل على شكل إدانة للذات على فشلها. يدخل في الفئة نفسها، مختلف تصرفات الخداع والتضليل والاحتيال في التعامل مع المتسلط. حيث يحصل يحدث قلب الأدوار، فالمتسلط القوي يتحول إلى ساذج (مغفل)، بينما المقهور يتحول إلى مسيطر بشكل خفي.

٢- العنف الرمزي - السلوك الجانح

السلوك الجانح هو الذي يعتدي على القوانين في مجتمع ما. السلوك الجانح مادي دوما، يتجسد في فعل محدد، ونتائج معينة. لذلك قد يبدو ضربة من التناقض القول إن الانحراف هو عنف رمزي. ما نقصده بهذه التسمية، ليس مادية الفعل، ولكن دلالته التعبيرية. فالسلوك الجانح هو مؤشر ، يتجسد في تصرف بعض الأشخاص الخارجين على القانون، للدلالة على ما يعتمل باطنية في بنية ذلك المجتمع من اضطراب، وما يتراكم فيها من عدوانية كامنة، قابلة للانفجار. وليس فقط حجم الانحراف هو الذي يدل على مدى أزمة المجتمع، بل نوعه وشدته : جرائم ضد الملكية، أو جرائم ضد الأشخاص، وهذه الأخيرة قد تكون متفاوتة في عنفها ودمويتها.

السرقة هي السلوك الجانح الأكثر شيوعا في العالم المتخلف. وقد تأخذ شكلا بدائية مباشرة، كسرقة الأموال والمتاع والنشل، أو تأخذ شكل الاحتيال. الضوابط الخلقية الداخلية غير فعالة دائمة. ليس هناك أخلاق بين الفئات المقهورة، هناك فقط خوف من السلطة وبطشها. ولذلك تشيع تصرفات الاحتيال والغش والخداع والاستغلال بقدر ما تسمح به إمكانات التهرب من الملاحقة. ليس هناك مصلحة عامة، وتآزر اجتماعي، فكل يتدبر أمره كما يستطيع في غياب الانتماء، والالتزام. ومن خلال هذا النمط من التصرف يعتقد الإنسان المقهور الذي أتيحت له فرصة التزود ببعض أسباب القوة، وفي غياب السلطة، أن له الحق في التعويض عما أصابه من حيف مزمن.

٣- التوتر الوجودي والعلاقات الاضطهادية

يعيش الإنسان المقهور في حالة من التوتر الوجودي العام . تراكم العدوانية المزمن يلون الحياة جميعها بصبغة متوترة. تميل العلاقات نتيجة لذلك، إلى أن تتخذ طابعا اضطهاديا يجعل إمكانية تفجر العنف المتعصب كبيرا.

٣.١ التوتر الوجودي العام

الإنسان المقهور في حالة تعبئة نفسية دائمة استعدادا للصراع. نلاحظ ذلك من حالة التوتر العام الذي يبدو جلية على محياه وفي حركاته . فلأقل الأسباب نجد العدوانية اللفظية تنفجر في سيل من الشتائم والسباب. كما أن الخطاب اللفظي سرعان ما يتدهور إلى المهاترة والتحدي والوعيد. وتأخذ الأمور شكلا قطعية (إما شر كلها، أو خير كلها). وأحيانا ينفذ التهديد، باستخدام العضلات أو السلاح، بسهولة مذهلة (في فورة غضب). ذلك أن هناك إحساسة دفينة بانعدام فعالية اللغة اللفظية وأسلوب الإقناع، فيتحول الأمر بسرعة إلى الجسم السحري (العضلي أو الناري) من خلال الإخضاع.

ومما يزيد من تصعيد التوتر العام، أن كلا من الطرفين معبأ تماما. وهكذا يكفي أقل اصطدام أو صدام حتى ينفجر الموقف، بشكل يصعب ضبطه وتهدئته.
إن التوتر الوجودي العام، وما يصاحبه من تفجر للعنف الدموي وغير الدموي، ليس وليد بدائية نفسية كما اعتقد بعض علماء الغرب الذين قالوا بعاطفية وانفعالية إنسان العالم المتخلف. إنه وليد وضعية مأزقية تشكل إحدى خصائص بنية القهر التي يتميز بها هذا العالم . الإنسان في المجتمع المتخلف عدواني، متوتر، يفتقر إلى العقلانية ويعجز عن الحوار المنطقي، لأنه يعيش في حالة مزمنة من الإحباط الاعتباطي، ومن الإهمال. وعندها تنهار علاقات التعاطف والتفاهم لا محالة، لتحل محلها علاقات اضطهادية . الآخر هو الخصم الذي يتهدد المصير الذاتي ويهدد بالاستيلاء على الحقوق الذاتية . إنه بالتالي العقبة الوجودية في وجه تأمين المصلحة الذاتية. ولذلك فلا بد من إعلان الحرب عليه، أو الاحتياط للحرب التي قد يعلنها علينا. وتحدث مبالغات كثيرة على هذا الصعيد، تأخذ طابعة استعراضية.
استعراض القوة ضرورة دفاعية ووقائية في آن معا، ولو لم تستند هذه القوة إلى أسس فعلية . المهم إيهام الآخر بها بغية ردعه.

٣.٢ العلاقات الاضطهادية - التعصب والفاشية

الوسيلة الأكثر شيوعا في العالم المتخلف، كما في غيره، لمواجهة قلق الوحدة وخطر الزوال هي توجيه العدوانية إلى جماعات خارجية، من خلال التعصب العرقي أو الطائفي وما يرافقه من ميول فاشية. الاحتمال الآخر، وهو الحل الأكثر فعالية وإيجابية، هو توظيف هذه الطاقات في عمل تغيير على مستوى المجتمع ككل بشكل يغير موازين القوى، ويقضي على أسباب العنف.
في المجتمعات المتخلفة ينقسم السكان إلى جماعات وطوائف مختلفة الانتماءات العرقية أو القومية أو الدينية ، متصارعة فيما بينها. وقد يكون هذا الصراع صريحة متفجرة، أو يظل كامنة يعتمل في الخفاء وينخر بنية المجتمع مهددة وحدته، ولكنه موجود أبدا. بالطبع يستغل المتسلط الخارجي الذي يريد إحكام سيطرته على المجتمع هذه التناقضات مفجرة إياها، أو مهددة بهذا التفجير من أجل فرض رغباته.
وتحت وهم الدفاع عن وجود الجماعة ومصالحها الحيوية ضد التهديد الخارجي تنبت بذور التعصب والفاشية التي تتغذى من الطاقة الهائلة التي تعتمل في أعماق الإنسان المقهور، متعطشة إلى القوة والسيطرة والانتقام.
الجماهير المغبونة والمقهورة متعطشة بشكل مزمن للقوة في مختلف رموزها وعبر شكليها الأساسيين: البطش والغلبة من ناحية، والعظمة والتعالي من ناحية ثانية، وهي مستعدة للانقياد وراء زعيم يقودها في هذا الاتجاه، يفجر ميولها للتشفي والعظمة ، ويعبر عنها. إنها تنساق وراءه وتستسلم له بشكل رضوخي طفلي، تتعطل فيه إرادتها وقدرتها على الاختيار والنقد والتقدير، ولا يبقى سوى طاقة انفعالية متفجرة.
ونتيجة ذلك يذوب الفرد في الجماعة ويلغي ذاتيته التي تشعره بالضعف فتلغى تناقضات الجماعة الداخلية ولا يبقى سوى شعور باللجوء إليها ونتيجة لذلك تنهار علاقة التعاطف والمشاركة في المواطنية. وتفتح الطريق عريضة أمام صب كل العنف على الجماعة الغريبة دون قيد أو ضابط. تحدث استباحة لها، ولكيان أفرادها، الذين يتحولون إلى مجرد أساطير للسوء والشر يجب القضاء عليها بإبادتها دون هوادة. ويفتح باب المجازر الدموية على مصراعيه وبشكل مذهل.

ثانيا: النظريات النفسانية في العدوانية والعنف

العدوانية من مشكلات البشرية الدائمة. كل الأديان والفلسفات، كل المعايير والقوانين والقواعد السلوكية اهتمت بتنظيم العدوانية وطرق ضبطها أو تصريفها. وما زال الإنسان حائرة حتى الآن إزاء عدوانيته، كيف يسيطر عليها ويتصرف بها.
يقول بوتول في مقدمته لكتاب الإنسان الغاضب ، (إن إحدى الخصائص الرئيسية لكل حضارة هي الطريقة التي تفهم وتنظم بها العدوانية . هذا الفهم يغرس في نفوس جميع أفرادها منذ حداثة سنهم. كل تربية تتضمن توجيها للعدوانية . فهي تعلم متى وكيف يجب أن تكبح، أو بالعكس يسمح بها حتى تثار. ويتابع قائلا: الوظيفة الأساسية للدولة تتلخص بمنع أو تحديد العنف بالنسبة للأفراد، واحتكار استعماله لها فقط. الصلاحيات العليا للسيادة تتلخص في إدارة العدوانية الجماعية. محك الدولة ذات السيادة في قانوننا الدولي هو سلطة شن العنف المنظم، أي إعلان الحرب).

١- وجهة نظر علم نفس الحيوان

أبدع (كونراد لورنز) في دراسة العدوانية وخصائصها مبينا أن شراسة الحيوان المفترس ودمويته ليستا سوى أسطورة. العلاقات الدموية والعدوانية المفرطة لا تلاحظ إلا بين الحشرات : أما بين الحيوانات الفقرية فللعدوانية وظيفة محددة في الأمور الأربعة التالية، منفردة أو متداخلة فيما بينها: ١- الدفاع عن المجال الحيوي، عن الطريدة أو منطقة الصيد. ٢- البحث عن الغذاء . ٣-- المكانة المرتبية ضمن الجماعة، بغية تحقيق توازن وظيفي. ٤- التزاوج، إذ تبرز أكثر أشكال القتال ضراوة بين أفراد الجنس نفسه، وتكتب الغلبة ، للأقوى مما يؤدي إلى تطور الجنس. على العكس فالقتال بين الأجناس المختلفة لا يحدث إلا الأسباب دفاعية محضة أو للحصول على الطعام.

ويستخلص «لورنز» من دراساته المستفيضة على سلوك الحيوانات في القتال عدة أمور هامة : ١- هناك توازن بين سلاح الحيوان المفترس، ودفاعات الفريسة. ٢- يصل السلوك القتالي أقصى شدته في حالة الاستجابة الحرجة، إذ يبذل الحيوان أقصى إمكاناته في حالة من اليأس من النجاة بالهروب أو الإستسلام. ٣- كل سلوك عدواني عند الحيوان يقابله ويضبطه ميل كابح يمارس عمله من خلال سلوك طقسي يقوم به الحيوان الأضعف (يأخذ طابع الرضوخ والاستسلام). ٤- مأساة الإنسان بعدوانيته التي تتفجر عنفا وشراسة وحقدا تعود إلى فقدانه التكيف النزوي، أي فقدان الكوابح الغريزية لعدوانيته، التي حلت محلها الكوابح الخلقية والحضارية. ٥- غربة وبعد العدو موضوع الهجوم يسهلان كثيرة إطلاق العنان للسلوك العدواني. ٦- العدوانية غريزة تلقائية. إنها ليست مجرد رد فعل على مثير خارجي محبط. فهي تتحرك تلقائيا. ٧- يضيف «أنطونيني» إلى ذلك كله، إن الحقد هو أهم ما يميز عدوانية الإنسان عن عدوانية الحيوان. فليس هناك حقد عند الحيوانات. كما أن عدوانية الحيوانات لا تصل أبدا درجة الاستقلالية التي تلاحظ عند الإنسان. فالحقد هو عدوانية تسامت حتى تجاوزت البيولوجي كلية، كي تصل مرتبة نفسية خالصة.

٢- وجهة نظر التحليل النفسي

يقول فرويد بنزوتين أساسيتين توجهان الكائن وتمدانه بالطاقة الحيوية . نزوة الحياة (إيروس) ونزوة الموت (تاناتوس). أما نزوة الحياة فهي منبع الطاقة الجنسية، المسؤولة عن كل رباط إيجابي مع الآخرين، عن كل علاقة عاطفية متعاطفة، هي المسؤولة عن التقارب والتوحيد والتجميع وتكوين وحدات حية أكبر فأكبر. على العكس منها، نزوة الموت التي تهدف إلى التدمير، إلى تفكيك الكائن الحي والعودة به إلى وضعية الجماد. وعندما تتوجه طاقة الموت إلى الخارج فإنها تأخذ كل أشكال العدوانية، والتدمير، والعنف، والحقد. عندما تتوجه إلى الذات بشكل مخفف فإنها تأخذ طابع مشاعر الإثم وإدانة الذات والقسوة عليها والتشدد معها (فيما يسمى الأنا الأعلى القاسي). على العكس منها نزوة الحياة التي إذا ما تركزت في الذات تشكل أساس ومصدر كل اعتبار ذاتي، محبة الذات والحفاظ عليها.
والليبيدو (وهو الطاقة الجنسية الممثلة لنزوة الحياة) في صراع مفتوح مع غريزة الموت. مهمة الليبيدو هي لجم نزوة الموت ومنعها من تدمير الإنسان بتوجيه القسم الأكبر منها إلى الخارج. تركز النزوتان منذ الطفولة الأولى في العلاقات مع الأم خصوصا، ومع الوالدين عموما. موقف الرضيع الانفعالي من أمه متجاذب يتضمن أقصى درجات الحب مع أقصى حالات الغضب الحاقد عندما تحبط هذه الأم رغباته، وكذلك الحال تجاه الأب.

أشهر من يتبع تقسيمات فرويد: ميلاني كلاين، التي توضح أنه إذا ظلت نزوة العدوان على حالتها، فإنها تهدد بتدمير الإنسان من الداخل. وهذا ما يولد فيه أشد حالات القلق الذي يأخذ شكل الخوف من الفناء، أو الإحساس بالاضطهاد ولذلك يسرع الإنسان بصب هذه العدوانية للخارج حيث الآخر رمز الشر والعدوان، وبذلك نتهرب من عدوانيتنا وسوئنا، ونجنب من نحب شرهما، كما نجنب أنفسنا شر ما قد يتهددنا من عدوانيته، تقول ميلاني أننا في اتهام الآخرين نجد راحة مزدوجة : تصريف العدوان بصبه عليهم (الانتقاد) وإثبات البراءة الذاتية (نفي تهمة العدوان عن الذات)، ذلك ما يحدث في التعصب الديني والطائفي والسياسي. وليست العدوانية وحدها التي تسقط على الخارج، بل أيضا مشاعر الذنب الآخر هو المذنب وهو الذي يستحق العقاب، ومن هنا تصبح العدوانية الذاتية مشروعة ومبررة، إنها إحقاق الحق من خلال قصاص الآخر.

أخرون ينكرون إجمالاً ربط العدوانية بنزوة الموت كنزوة أولية ويربطون بين الميول التدميرية وإحباط تحقيق الذات عمومة أو الإحباط الجنسي خصوصا. يقول يونج: «إن المرء يمكن أن يشعر بالذنب لا على أثر فعل ممنوع، ولكن أيضا عندما لا يستطيع الوصول إلى تحقيق ذاته، إبراز فرديته الخاصة والعميقة. هذا الشعور بالذنب هو الذي يولد عدوانية غير محدودة».

أما رايش فهو يحتج على التشويش بين مصطلحات العدوانية، السادية، التدمير وغريزة الموت. ويقول إن للعدوانية ونزوة التدمير هدفا دفاعيا هو الحفاظ على الحياة . التدمير في وضعيات الخطر ينبع من الرغبة في العيش والرغبة في تجنب ألم القلق . فالتدمير والعدوان

هما في خدمة إرادة الحياة . العدوانية هي اقتراب من الأهداف المرغوبة واستحواذ على الموضوعات المرغوبة. فهي ليست غريزة بالمعنى الدقيق، بل وسيلة لإرضاء أي غريزة، خصوصا غريزة الجنس.

ويقول دولار أن كل توتر عدواني ينتج عن الإحباط. شدة العدوانية تتناسب مع شدة الإحباط. تزداد العدوانية مع نمو عناصر الإحباط. صد العدوانية (إحباطها) يولد عدوانية لاحقة. تزداد العدوانية الموجهة نحو الذات، حينما يصعب توجيهها نحو الخارج.

هذه الآراء جميعا على ما فيها من تناقض نظري، تلتقي في نتائجها العامة ، فيما يمكن أن نسميه نزوة السطوة أو السيطرة، في جبروت السيادة على الآخر. السادية!
السادية في أساسها حالة نفسية عامة، وضعية علائقية مع الآخر تتخذ طابعة مأسوية، أكثر منها مسألة حصول على اللذة الجنسية من خلال إنزال الألم بالقرين. ويكمن جوهر السادية في البحث اليائس عن الأنا، في الحاجة إلى توكيد الذات، في دفع الآخر للاستجابة إلى حقيقتك الذاتية: هذا أنا، أنا هنا، يقول السادي، يجب أن تلاحظ وجودي، إذا لم تلاحظه بمحبتي فعليك أن تدركه من خلال ألمك، إني أنا من يجعلك تتألم. بألمك تعترف بوجودي الذي يصبح أكثر واقعية بمقدار ما تكبر معاناتك. يعتقد السادي أن أكبر إثارة ممكنة ، الاعتراف الحقيقي بالذات، تحقيق الذات الأكثر عمقا يحصل عليه من خلال التحقق من قدراته على إنزال العذاب والمعاناة في الآخر.
بالإضافة إلى السادية الفردية هناك السادية المؤسسية. هناك مؤسسات تحكمها إيديولوجية سادية توجه تصرفات العاملين فيها وتفرض المازوشية والقهر على أفرادها: الجيش، التنظيمات البوليسية، السجون، الإصلاحيات، مستشفيات الأمراض العقلية، الامتحانات وغيرها.

٣- وجهة نظر ظواهرية

تنطلق هذه المدرسة من دراسة التجربة الذاتية للإنسان في تفاعله العلائقي مع الآخرين. فالعنف، كغيره من أشكال السلوك، هو نتاج علائقي. الفارق الأساسي بين الظواهرية والتحليل النفسي هو أن الظواهرية تدرس العلاقة المعاشة الواقعية وما يصاحبها من تجربة وجدانية، بينما اهتم التحليل النفسي بالعلاقة الهوامية، أو العلاقة الإسقاطية.
حللت هذه المدرسة في دراستها العن، التحولات الذاتية التي تتم عند المعتدي، وكذلك التحولات التي تصيب علاقته بالآخر. وهي تحولات لا يمكن دونها الاعتداء على الآخر. فليس هناك مطلقا عنف مجاني، اعتباطي، أو فجائي أو بدائي (نزق) كما قد يتصور البعض. العنف الذي نراه مجسدا في كارثة علائقية، هو وليد عملية تغير بطيء داخلية وعلائقية، يقضي على عواطف الحب والمشاركة ليفجر مكانها العنف حرا.

أولى خطوات السير نحو السلوك التدميري هو فك الارتباط العاطفي بالآخر وتحل محلها الروابط مشاعر الغربة والعداء والاضطهاد، مما يؤدي إلى بروز الأنوية الذي يفقد الآخرين اعتبارهم. وتتركز كل العواطف الإيجابية في الذات بعد أن كانت موزعة بينها وبين الخارج، أو في الجماعة المرجعية، بعد أن كانت موزعة بينها وبين بقية الجماعات.
يرافق فك الارتباط العاطفي، سحب كل التوظيف العاطفي من الآخر، وإرجاعه إلى الذات فتتضخم أهميتها على حساب الخارج الذي تتبخس قيمته. يطغى البرود العاطفي إذا لدرجة قد تصل حد انعدام الحساسية كلية تجاه الضحية. هذا البرود هو الذي يجعل المعتدي يقدم أحيانا على فعل القتل أو الإبادة ببرود كلي، بلا مبالاة وكأنه يقدم على أمر تافه لا قيمة له. وتحدث عملية شرعنة داخل المعتدي تجاه فعله تتضمن تضخم ما لحق به من ظلم أو وقع من حيف الضحية عليه. إنه بريء ومظلوم ولا مسؤولية له فيما حدث. ولا بد له أن يتحرك إذا لإحقاق الحق.

ثالثا: محاولة لفهم العنف في المجتمع المتخلف

ينطلق تحليلنا الخاص لفهم العنف من خلال تحليل علاقة القهر التي تستحكم بالإنسان في المجتمع المتخلف، ومن خلال ما تتضمنه هذه العلاقة من تبخيس وهدر لإنسانيته. في رأينا أن العنف هو الوجه الآخر للقهر، وأن العدوانية المدمرة التي تتخذ طابعة فاشية، هي قرينة الإرهاب. في المجتمع المتخلف السلطة لا تعرف من الأساليب للتعامل سوى الإرهاب والقمع، سوى الإخضاع دون حدود، أو هي تنحو منحى التضليل. ردود فعل السلطة عنيفة ومباشرة، وتأخذ طابعة مادية. البنية الاجتماعية التي تنتج عن هذه الوضعية جامدة متصلبة، لا تتضمن أي صمامات أمان، أو أي تقنية للعدوانية التي لا بد أن تتراكم.

ليس هناك علاقة تكافؤ، أو حوار بين السلطة والجماهير في المجتمع المتخلف. ليس هناك اعتراف متبادل. السلطة لا تريد مواطنين، بل أتباعا. السلطة في المجتمع المتخلف تخشى وضعها موضع التساؤل وهو شرط الاعتراف بشرعيتها.

وهكذا فإن علاقة القهر بما تتضمنه من قمع وإرهاب وتضليل، تخلف وضعية خاصة جدة مولدة للعنف بمختلف وجوهه. يمكن بحثها من خلال حالة قطبي العلاقة : صورة الذات عند الإنسان المقهور، وصورة المتسلط التي تتكون لديه.

أما صورة الذات فتتلخص بشعور محض ومثير للذعر بانعدام القيمة، بهدر الإنسانية، بإحساس بالاختناق نظرا لاستحالة التعبير عن الذات وتوكيدها من خلال صرخة احتجاج أو نداء. تثير هذه الصورة جرحا نرجسيا جذريا. كما أنها تفجر على صعيد آخر عقدة خصاء شديدة. هذه الوضعية تفجر أكثر درجات العدوانية بدائية وتدميرا. تتوجه إلى الداخل فتحدث تبخيس وتأثيم ذاتي . وللخارج فتتخذ شكل نزوة السطوة، شكل السيادة السادية بكل ما فيها من جبروت. ولا بد لنزوة السطوة هذه من جماعة ، ينتمي هذا الكائن إليها كي يتمكن من التعبير عنها. جماعة يقودها زعيم اضطهادي . تلك هي الفاشية ، تنصب تدميرا ومجازر على الآخرين. ويتخذ العنف طابع التشفي الذي لا يعرف الارتواء، لأن الجرح النرجسي النابع من القهر غير قابل للإندمال. ومع القمع الجنسي الذي يعضل تدخل نزوة الحياة لضبط نزوة الموت تنفجر العدوانية دون ضابط.

وأما صورة المتسلط، فهي بدورها عامل تفجير العدوانية . إنها لا تمثل الأب الحامي العطوف، بل تثير صورة الأب المهدد القاسي. تعاش كسلطة مهددة لا يتمكن المرء من التماهي الإيجابي بها. الرضوخ وحده متاح مع سيطرة مشاعر الذنب وما تفجره من ملزم داخلية.
وطالما استحال التماهي مع صورة إيجابية متعاطفة وحامية للحاكم، فإن ذلك يزعزع روابط الانتماء إلى الجماعة والإخاء في المواطنية. فقدان روابط الانتماء الاجتماعي، يعود مباشرة إلى فقدان الالتزام تجاه الآخرين، وفقدان الاحترام لما هو عام ومشترك، مما يفتح السبيل أمام بروز الأنوية المفرطة. فتنهار قيمة الآخر وتتخذ العدوانية هنا تحديدا طابع تغليب المصلحة الذاتية بشكل مطلق، وقد تتخذ طابع السلب واستباحة الآخرين.
السلطة في المجتمع المتخلف فرصة من أجل التسلط والاستغلال. وهكذا فكل من تمكن من شيء من قوة أو سيطرة، فإنه سيسلك النهج نفسه، لأن ذلك هو النموذج الشائع.

وهكذا، فإذا كان القهر من خلال الإرهاب والقمع هو الحقيقة التي تعشش في بنية المجتمع المتخلف تنخرها وتلغمها، فإن العنف على مختلف صوره لا بد أن يكون السلوك الأكثر شيوعا حين تسنح الفرص. تلك هي كارثة الرباط الإنساني طالما لم تتغير العلاقة بأخرى أكثر مساواة تعيد الاعتبار إلى الحاكم والمحكوم.

الفصل التاسع: وضعية المرأة

المرأة هي أفصح الأمثلة على وضعية القهر بكل أوجهها وديناميأتها ودفاعاتها في المجتمع المتخلف. وهي أكثر العناصر الاجتماعية تعرضا للتبخيس في قيمتها على جميع الأصعدة: الجنس، الجسد، الفكر، الإنتاج، المكانة المرأة العورة، المرأة رمز العيب والضعف، المرأة القاصر، الجاهلة، المرأة رمز الخصاء، المرأة الأداة التي يمتلكها الرجل مستخدمة إياها لمنافعه المتعددة. يقابل هذا التبخيس مثلنة في إعلاء شأن الأمومة وإغداق الصفات الإيجابية عليها (الطيبة، المحبة، ينبوع الحنان، رمز التضحية، إلخ..).
والعاطفية الزائدة، وسيطرة الانفعالات، واستفحال الخرافة عندها ليس سوى ثمرة ما فرض عليها من تجهيل، بسبب حرمانها من فرص تنمية طاقاتها الذهنية التي تسمح وحدها بسيطرة العقلانية والمنطق. وهكذا فنحن لسنا مطلقا بصدد كيان وخصائص بيولوجية ، لسنا بصدد ما تشيع تسميته بطبيعة المرأة . إننا بصدد وضعية تفرض عليها، ومكانة تعطى لها.

أولا: ملامح وضعية القهر

يتناسب القهر الذي يفرض على المرأة مع درجة القهر الذي يخضع له الرجل في المجتمع. ويمكننا بهذا الصدد أن نميز بين مستويات ثلاثة أساسية منها: وضعية المرأة في الطبقة الكادحة، وضعية المرأة في الطبقة المتوسطة والمثقفة، ووضعية المرأة في الفئة ذات الامتياز.

تلاحظ هذه المستويات عموما في الأوساط الحضرية. أما في الأوساط العشائرية المغلقة فوضع المرأة أفصح تعبير عن هذا الواقع، حيث يختصر كيانها كله في جسدها الذي حول إلى مجرد أداة إنجاب الأولاد، أداة التحالف والتلاحم، لا وجود لها خارج إطار هذا الدور المرأة ذات الجسد، أداة الإنجاب والمصاهرة.

١- المرأة في الوسط الكادح وما تحت الكادح

هناك تحديد وتوزيع الأدوار بين الرجل والمرأة في هذا الوسط. كل من المرأة والرجل يتمم الآخر وظيفية، مما يسمح بشيء من التوازن الحيوي في هذا الوسط. نلاحظ في هذه الأوساط تعارضا واضحا، ومتكاملا لتصرفات ،وخصائص الذكورة ،والأنوثة. هناك مبالغة واضحة في قوة الرجل وذكوريته ومكانته والقدرة على المجابهة والتصدي عند وتقدير مدى تحمله وجلده وعدم شكواه. فالرجل باعتباره كاسب الرزق، والطرف الذي يجابه العالم الخارجي وتحدياته وتهديداته، لا بد شحنه ومن إنكار مظاهر الضعف والعجز وقلة التدبير والخوف عنده، وتلعب المرأة دور المعبرة عن المأساة، الناطقة بالمعاناة.
وفي مقابل عقلانية الرجل ومبادرته، يوكل إليها دور العاطفية، وفي مقابل الحياة الموجهة نحو الخارج، يوكل إليها دور الانزواء ضمن حدود منزلها. وفي مقابل قوة الرجل وذكورته وسيطرته، يوكل إليها تمثيل المازوشية والرضوخ والاستسلام للأقدار.
وهكذا يحدث انشطار في الأسرة من خلال توزيع الأدوار: يحتل الرجل مركز القوة والثقل، بمقدار ما تتحول المرأة إلى مركز الضعف والمهانة. فكل يلعب دوره المقرر له. وعندما تختل الأدوار ويعجز الرجل عن الحفاظ على مظاهر القوة المفترضة، تتحول المرأة إلى دور الرجل. تعيش الأوساط الكادحة والمقهورة هذه الوضعية كمصدر قلق كبير وصريح. والقاعدة هي أن يعوض الرجل كل قهره ومهانته من خلال لعب دور السيد الذي يخضع المرأة، يستعبدها ويستغلها.
وتتعدد صور الاستغلال منذ الولادة وحتى الزواج وفي العلاقة الجنسية وعلى مستوى القوانين التي تفرض عليها العفة وتسحب منها صفة الأنوثة في حالة التفوق والنبوغ.

٢- المرأة في الطبقة المتوسطة

هذه الفئة هي التي تعي مشكلة المرأة، على عكس الفئتين الأخريين (الفئة الكادحة، والفئة ذات الامتياز) حيث تفرض على المرأة أدوار جامدة، ويوكل إليها وظائف ثابتة. فقد أتيح للمرأة في الفئة المتوسطة، أن تخرج من سجنها التقليدي، وأن تأخذ قسطا متفاوتة من العلم، وأن تبدأ حياة منتجة، وتشارك الرجل الأعباء والمسؤوليات داخل الأسرة وخارجها. كما أن الرجل، من ناحيته، بدأ يعي وضعية المرأة الفعلية وأهمية مشاركتها وضرورة نمو شخصيتها وبناء كيانها الذاتي، كشرط لارتقائه هو بدوره.
على أن هذه الفئة في المجتمع النامي، ما زالت تعاني الكثير من رواسب الماضي وذلك عند كلا الجنسين على حد سواء. والصفة المميزة هي الاختلال في توزيع الأدوار، وغموض المكانة لكل من الرجل والمرأة. إن المرأة أسيرة عملية تشريط مزمن تدفعها لتلعب دور الراضخ المقهور، ولكنه لم يعد يرضيها على مستوى الوعي بكيانها والوعي بحقوقها. والرجل يتحدث عن المساواة وعن تحرير المرأة، ولكنه لا يستطيع التخلي عن امتيازاته بسهولة. وهكذا يعاني كل منهما من صراعات نفسية وتناقضات داخلية وعلائقية.

٣- وضعية المرأة في الفئة ذات الامتياز

لا تعاني المرأة في هذه الطبقة التي تحظى بامتيازات الثورة والمكانة، من القهر بالمعنى المادي. ولكنها إذا أفلتت من القهر، فهي لا تفلت مطلقة من الاستلاب. إنها أداة رغم كل شيء. يطمس عقلها، وتستلب في عالم الأسرة أو الزوج حيث تحدد لها وظيفة معينة ممثلة في المحافظة على الأسرة وتقاليدها وامتيازها وهي أداة زيادة سطوة هذه الأسرة وبسط نفوذها، من خلال المصاهرة والويل لها إذا أرادت أن تشذ عن هذا الدور.
تتعرض المرأة في هذه الفئة إلى أخطر أنواع العبودية، وهي الاستلاب العقائدي، حيث تزين لها وضعيتها كأدا ، وتربط قيمتها، بمقدار كلفة الجهاز والأثاث، ومدى ترف وفخامة الزفاف. وبعد الزواج تكاد حياتها تقتصر على استعراض جاه الأسرتين، وثروتهما. وهكذا فإذا أفلتت المرأة، في هذه الفئة، من القهر المادي، فإنها ستعيش أسيرة استلاب المعنوي لكيانها. والضجر هو أبرز ملامح هذا الموت الناتج عن انعدام الالتزام بقضية إنسانية، تمد الوجود بدفقة الحيوية والأمل، وتجعل للحياة طعمة ومعنى. إن الضجر والسأم هما آفة هذا الاستلاب وأبرز أعراضه، ولا تجد المرأة علاجا له إلا الإسراف في مزيد من الاستلاب ومزيد من الظواهر والاستهلاك .

ثانيا: أوجه القهر ووسائله (الاستلاب والاختزال)

١- الاستلاب الثلاثي

١.١ الاستلاب الاقتصادي

تتعرض المرأة لعملية تبخيس دائم لجهدها، مما يسمح للرجل باستغلال هذا الجهد دون مقابل. كما تتعرض لتبخيس إمكاناتها، مما يدفع بها دوما إلى مواقع إنتاجية ثانوية، بعيدة عن الخلق والإبداع. وتتعرض في المقام الثالث، إلى طمس هذه الإمكانات والطاقات من خلال حرمانها فرص التدريب الملائمة. وتتعرض رابعة لغرس عدم الثقة بنفسها وإمكاناتها، مما يجعلها تكتفي بمكانة مهنية هامشية.
منذ البداية تعد المرأة لمكانة هامشية، ولوضعية التبعية للرجل. دراستها وسيلة تزيد من قيمتها كزوجة مقبلة ليس إلا. والإعداد المهني جهد ضائع في نظر الأهل طالما أن مصيرها هو الزواج والبقاء في المنزل. هذا التشريط أدى إلى خمول المرأة وطمس طاقاتها الذهنية، وغرس في نفسها دونية ذهنية ومهنية من الصعب علاجها.
وإضافة إلى الإجحاف في نوع العمل، ومستوى الإعداد المهني، يلحق بالمرأة حيف واضح على مستوى التقويم المادي لعملها. إلى وقت قريب كان هناك ميل لتبخيس ثمن عملها، على شكل أجور زهيدة، وإجحاف في الترقية، وجور في قوانين التعويضات والإجازات. ولكن الأخطر من ذلك هو تجاهل تقويم الجهد المنزلي الذي يكاد يعتبر مجانية، أو كجزء من مهمات المرأة التي لا تدخل في نطاق التقويم.

٢.١ الاستلاب الجنسي

تختزل المرأة إلى حدود جسدها. ويختزل الجسد إلى بعده الجنسي: المرأة مجرد جنس، أو أداة للجنس ووعاء للمتعة. مما يؤدي إلى تضخم البعد الجنسي لجسد المرأة بشكل مفرط، وعلى حساب بقية أبعاد حياتها. فتتشكل كل مخاوفها الوجودية إلى قلق قدرات الجسد على حيازة إعجاب الرجل بضمان الزواج. هذا التركيز يفجر عند المرأة أشد الرغبات وأعظم المخاوف في آن معا. ويقابل التركيز الجنسي المفرط والاختزال لجسد المرأة، قمع له يبلغ أقصى درجات الشطط والقسوة. فالدين وقانون المجتمع منقوش منذ الطفولة على جسد المرأة وهو قبل كل شئ ملكية الأسرة ومن ورائها المجتمع، أسرة الأب في البداية ، ثم أسرة الزوج فيما بعد.
وهذا كله يوقع المرأة في حالة تناقض مذهل بين اختزال كيانها إلى مجرد جسد جنسي والقمع المفرط الذي يفرض على هذا الجسد وأبرز مثال على هذا التناقض أن الرجل قد يشكو من تزمت المرأة، ولكنه يتهرب منها ويخشاها إن هي تجرأت على التعبير عن جسدها.
ونتيجة هذا القمع والاستلاب تتحول المرأة إلى كائن متزمت. وتتحول الطاقة الجنسية إلى مسارب نزوة العدوان متخذة شكل الحقد. والتزمت، مضافة إلى الحقد، ويفتح السبيل أمام التعصب على اختلاف أشكاله، تغرسه المرأة في أطفالها. تنشأ على يديها نماذج بشرية تحمل بذور الفاشية والخصاء.

٣.١ الاستلاب العقائدي

الاستلاب العقائدي، هو أن تقتنع المرأة بدونيتها تجاه الرجل، وتعتقد جازمة بتفوقه، وبالتالي بسيطرته عليها، وتبعيتها له. هو أن توقن المرأة أنها كائن قاصر، جاهل، ثرثار، عاطفي، لا يستطيع مجابهة أي وضعية بشيء من الجدية والمسؤولية، وبالتالي لا تستطيع الاستقلال وبناء كيان ذاتي لها. هو أن تعتقد المرأة أن عالمها هو البيت، وأن الزوج والأولاد والأسرة تشكل حدود كيانها. والاستلاب العقائدي هو تنمية إمكاناتها كأم وخادم، وطمس كل ما عداها من إمكانات مهنية إنتاجية.
ومن خلال هذا الاستلاب يصل القهر أقصاه ، لأن المرأة تعتز عندها بمظاهر قهرها، وتعرف نفسها من خلال استلابها.

٢- الاختزالات

يخضع كيان المرأة، الأشكال عديدة ومتنوعة من الاختزال تجعل منها امرأة أسطورة . وتقسم هذه الاختزالات إلى فئتين أساسيتين: الأولى إيجابية تبالغ في قيمتها وتمثلنها، والأخرى سلبية تبالغ في تبخيس هذه القيمة. والنتيجة واحدة في الحالتين، إذ إننا لا نرى من المرأة إلا ما نريد ونحتاج، في عملية تعميم مقصودة على بقية جوانب كيانها.
الاختزالات السالبة، أو التبخيسية فهي الغالبة، منها: المرأة القاصر (الطفلية العاجزة مصدر الهم وسبب العبء والقلق)، المرأة الانفعالية، المرأة الغاوية (مجرد جسد يشتهى بلا عقل أو ذكاء، مجسدة الشيطان وسبب الآثام)، المرأة المظهر، المرأة الماكرة، والمرأة الخادم (المخلوقة للسخرة والخدمة بلا هدف آخر).

أما الاختزالات الإيجابية، فهي ترفع المرأة إلى مرتبة مثالية. ولكنه تقدير وتقديس يرفض للمرأة إلا أن تكون مثالية ، يرفض أن تكون لديها نيات عدوانية، أو تطلعات تمردية، أو رغبات آثمة، أو حاجات جسدية وجنسية. أشهر الاختزالات الإيجابية هي المرأة الأم محط أساطير التفاني والتضحية. على عكس المرأة - الأم هناك المرأة - الوجاهة الاجتماعية، وهي المرأة المختزلة إلى جمالها، أو حسبها ونسبها. إنها دمية يستعرضها الرجل كي يتباهي بملكيتها أمام الآخرين.
في هذه الاختزالات السلبية منها والإيجابية، تحرم المرأة فرصة عيش كيانها بكل أبعاده وتنوعه وتناقضه.ومن خلال الاختزال الاجتماعي يتمكن الرجل من تسخير المرأة لأغراضه، ويتم له استلابها دون الشعور بالإثم.

ثالثا: دفاع المرأة ضد وضعية القهر

لا تظل المرأة هكذا فاترة، مستسلمة إزاء وضعية القهر التي تفرض عليها. إن الاستمرار في وضعية كهذه مستحيل على كل حال من ناحية التوازن النفسي . فلا بد للمرء من وسيلة تضمن تحقيقا للذات فعليا أو وهميا. وفي هذه الحالة تلجأ المرأة إلى أساليب دفاعية عدة لمجابهة مأزقها. تتراوح هذه ما بين الاعتداد بقيم الأنوثة وخصائصها، وبين السيطرة الخفية على الرجل.

١- التضخم النرجسي

ينطلق التضخم النرجسي لكيان المرأة من المثانة التي يحيطها بها الرجل والمجتمع عموما، في جسدها وفي بعض وظائفها الأسرية. من خلال هذا التضخم تشعر المرأة بافتخار خاص بجنسها، وبكبرياء يؤمن لها الرضى عن ذاتها. فالمثلنة تضعها من الناحية العلائقية في منزلة سامية هي على النقيض تماما من وضعية القهر التي تخضع لها. ذلك ما يساعدها على الوصول إلى توازن نفسي يجعلها على وفاق مع ذاتها، ويمكنها من تقبل وجودها.
تعيش المرأة تضخمها النرجسي، من خلال إحساسها بأنها كائن على درجة عالية من الأهمية، وبأنها خصوصا مرغوب فيها، وذلك في عدة قطاعات، أولها بلا جدال وظيفة الأمومة، وإذا كان الرجل يمتلك المرأة في علاقة السيطرة والتبعية، فإنها تجد لنفسها تعويضا عن ذلك في امتلاك الأطفال. ويرتبط بوظائف الأمومة، وظيفة مهمة ترضي المرأة ، وهي احتلال دور المعبر عن الشرف (شرف الأسرة في صيانة نسائها) والكرامة (كرامة الرجل في الحفاظ على سمعة بناته). لعب هذه الوظيفة يعطي المرأة انطباعا بأهمية شأنها في شبكة العلاقات الأسرية، وفي المجتمع بشكل عام.
بالإضافة إلى الأمومة، تحصل المرأة على تعويض نرجسي من خلال مثلنة جسدها كموضوع جنسي مرغوب فيه. وتتضخم هذه المثانة نظرا لحرمان الرجل جنسيا. في هذه الديناميكية ينكص الرجل المحروم جنسيا إلى مستوى الطفل المتلهف إلى حنان الأم، وحليبها، وتحس المرأة هذا الواقع مما يمدها بمشاعر الانتصار، فهي التي تعطي أو تمنع. وتستخدم المرأة هذا السلاح أفضل استخدام كي تستمد منه أهمية واعتبارا يعوضان لها قهرها.

٢- السيطرة غير المباشرة على الرجل

يعتقد الرجل أنه يسيطر على المرأة، وتعتقد هذه في دخيلة نفسها أنها هي التي تمتلك زمام السيطرة الفعلية عليه. وأن سيطرته الظاهرية، ليست سوى وسيلة توهمه بقوته كي لا ينتبه إلى ما تفرضه عليه المرأة من سيطرة. إنها تستغل ضعفها الظاهري كسلاح للتمويه على قوتها الضمنية. وتوهم الرجل أنه هو الذي يمتلك زمام الأمور، كي تحركها هي تبعا لرغباتها بشكل خفي. سلاح الضعف، تستخدمه المرأة حتى تضع الرجل في موضع الضعف، وبالإضافة إلى سلاح الضعف هناك سلاح الاحتيال والمكر الذي ألصق بحواء. ولكنه سلاح يفصح أكثر عن العدوانية التي لا بد أن تكمن في علاقة المرأة المغبونة بالرجل.
أحيانا تعلن المرأة الحرب بشكل شبه صريح على الرجل، خصوصا حين تأنس منه ضعفه، أو حين يعجز هو عن القيام بخصائص دوره المتسلط. ويتخذ الأمر في هذه الأحوال عدة مظاهر. منها الابتزاز الذي تدرب الأم عليه ابنتها المتزوجة حديثة، أو تحثها عليه كرد فعل على إهمال الزوج، أو تسلطه. وهكذا تستنزف المرأة الرجل بالطلبات العديدة والمتنوعة ، وترهقه من أمره عسرا. ويعاني الكثير من الرجال في المجتمع المتخلف من ظاهرة الاستنزاف هذه.
يضاف إلى الأسلحة السابقة، سلاح التنغيص الذي تتفنن فيه بعض النساء فتطارد الرجل بلا هوادة حتى تسمم حياته، وتقضي على سكينته. وإذا عجزت عن استخدام هذه الأسلحة الهجومية، لا تفقد المرأة القدرة على رد الفعل الدفاعي . إنها تحتمي بالمرض، ودرع

الحماية الأخيرة هو التماهي بالرجل المتسلط وإدانة الأنوثة التي تلجأ إليها المرأة في وضعية القهر المفرط. تتنكر لذاتها كإمرأة معبرة عن القصور في حالة من الذوبان في الرجل كقيمة وحيدة.

خلاصة

لم نستعرض في هذا البحث سوى بعض الملامح البارزة لبنية التخلف الاجتماعي، وما تولده من سيكولوجية خاصة عند الإنسان المقهور. كما أننا لم نتناول بالبحث سوى بعض الأساليب الدفاعية الأكثر بروزا التي يجابه الإنسان المتخلف من خلالها مأزقه الوجودي. هنالك لا شك جوانب مهمة كثيرة على كل صعيد لا بد للأبحاث الميدانية أن تكشف عنها، فالميدان لا زال بكرا، وقد يكون ما يخبئه من معطيات أهم وأخطر مما ظهر لنا منها. ما نستطيع توكيده منذ الآن هو أن الخصائص النفسية التي تميز شخصية الإنسان المتخلف وأوالياته الدفاعية تشكل في الكثير من الحالات عقبات جدية في وجه التغيير الاجتماعي، وتكون كوابح مهمة لمشاريع التنمية. وهنا يكمن خطرها تحديدا، وتبرز أهمية اكتشافها والوعي بها ومعرفة كيفية تحريكها لحياته وتحكمها بها. ذلك هو أيضا المبرر الأساسي لبذل جهد كبير للأبحاث في هذا الميدان، إذا أردنا لمشاريع التغيير والتطوير في مجتمعنا العربي أن تنطلق من أسس صلبة تحيط بالواقع وتتحكم بالقوى التي تحركه. بذلك وحده يمكن للآمال التي نضعها، فيما نرسم من مخططات تنموية ، أن تؤتي بعض أكلها.

الفهرس